كتاب القصد إلى الله

أبو القاسم الجنيد



Version 1.2 | May 2024

كتاب

القصد إلى الله

للعارف بالله سيدى

أبو القاسم الجنيد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله حمد من قصد إلى الملك الواد، واطلع بسره على البحر الوداد ونظر إلى المراد بعين الفؤاد، وعاين له الوصلة إلى المراد بالمراد للمراد، جل وعلا، فعند ذلك غاب عنه الرقاد، ثم العباد ثم البلاد، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الذى من توكل عليه كفاه ومن فر إليه آواه، ومن قصد إليه واعتصم به هداه إلى صراط مستقيم ودين قويم، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله البشير النذير السراج المنير، أرسله بالكتاب المسطور والدين المشهور، فحسن فعاله وصدق مقاله، صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد... معاشر القاصدين إلى مواصلة الله تعالى وقُربه، فكل من قصد الله تعالى وقصد مواصلته، فلا يخلوا من إحدى ثلاث: إما أن يكون واصلاً إلى محبوبه، فيكون معه إلى الأبد من غير أن يلتفت منه إلى سواه. وإما أن يرجع عن الطريق عنه، بالتفاته منه إلى سواه. وإما أن يبقى فى الطريق على الغرة والحساب مستدرجاً حتى يبدو له من الله ما لم يكن يحتسب.

فإن وقفتم معاشر الإخوان على عرفان تمييز هذه الثلاثة، وإلا سأقرؤكم بعون الله تعالى شرحها، وأبينها فى عشرة أبواب، فإن نظرتم ووقفتم عليه إن شاء الله تعالى تنتفعون به، فرحم الله عبداً نظر فى هذا الكتاب بعين الحقيقة وحفظ الحرمة، وإن لم تكن له فطنة وروية بما ذكرنا فى هذا الكتاب من مراتب أهل القصد إلى الله تعالى ومنازلهم، فليفزع إلى الله تعالى، ولا يخوض فى أهل ولاية الله تعالى وأهل قربه، ولا ينكر كلامهم، لأن الإنكار فيه خطر عظيم.

بارك الله لنا ولكم فى تأليفى هذا، وبه التوفيق على ما يحب ويرضى، ونستعينه على الصدق والصواب فإنه القادر الوهاب.



الباب الأول

فى القصد إلى الله تعالى وما يستقبله من العقبات

اعلموا معاشر القاصدين إلى الله تعالى أن العبد إذا قصد إلى الله وإلى مواصلته بطيران السر وصفاء النية، على أن يقيم معه إلى الأبد استقبله الف عقبة، كل عقبة أكود وأطول الف مرة من العرش إلى الثرى، ولا تزال هذه العقبات تستقبله عقبة بعد عقبة وهو يجوزها واحدة بعد واحدة إلى أن يصل إلى مقصوده ومحبوبه.

فأول العقبات التى تستقبله هى عقبة الدنيا بكل ما فيها من زهرتها وطيب عيشها والتمتع بأنواع نعيمها وراحتها، فتقول له أين تذهب يا عبد الله أنا مسكنك ومأواك خُلقْتَ منى، ووُلِدْتَ فى وعشت بى؟ لابد لك منى. فإذا نظر العبد إلى غوامض آفَاتها، وكمال سحرها وأنواع مكرها وغرورها وكثرة شرها وبلائها وسرعة فنائها وتقلبها بأهلها، ويرى نفسه مائلاً إلى راحتها وشهواتها وحسن المعاشرة مع أهلها، اعتصم بعون الله ولم يلتفت إليها، وزهد فيها ولم يشتغل بها، ويقول لها: يا مأوى كل بلاء يا غدارة يا عدوة الله، كم رأيتُ من غدرك. وقوله هذا وفعله حُرمة لإجلال ربه، فإن الآفات كلها راجعة إلى حب الدنيا.

ويقول: يا نفس أمَّا هذه الدنيا فانية، والذى لابد لى منه هو مقسوم لى بقسمة الله، لا يزيد ولا ينقص، وهو القادر على أن يُغنينى عنك.

فلما جاوز هذه العقبة وقطع عن قلبه حبال التعاليق، وصفا سره من غبار التخاليط صار، منفرداً للقصد إلى ربه تعالى، وتخلص من هذه العقبة، واستقام له إمارة الزهد فى الدنيا بعون الله عز وجل، استقبلته عقبة الخَلْق بكل ما فى عرفهم وعادتهم، وهى أصعب العقبات بَلِيَةً وأشدها مشقةً وأطولها نهاية، وأبعدها مسافة، وأمَرُها على القلب من غيرها بالف الف مرة. نادوه وقالوا له: أين تذهب يا ولى الله؟ نحن رفقاؤك وندماؤك ونعينك على جميع أمورك، ونساعدك على ما أنت فيه، لابد لك منا فى الدارين، وفى جميع أمور الدين والدنيا.

فينظر العبد إلى ألوان طبائعهم، وسوء أخلاقهم وقلة وفائهم، وغوامض آفاتهم، وقبح بواطنهم وفنون غوائلهم، وكمال غدرهم وسرعة إعراضهم، وخساسة هممهم وعظم انقلابهم، وألوان دقائقهم وغوامض مهلكاتهم، ويرى نفسه مائلة بطبعها إلى ثنائهم ومحمدتهم، مع محبة الرئاسة والشرف والجاه والمنزلة عندهم، فحينئذ يعتصم بعون الله ربه، ويقطع إيمانه منهم، ولم يشتغل

بهم ولم يلتفت إليهم، ويقول: يا معشر الرفقاء، الذى لا بد لى منه هو الله تعالى، وهو قادر أن يغنينى عنكم. وقوله هذا مع فعله إجلال لحرمة محبوبه ومقصوده.

فلما جاوز العبد هذه العقبة، وقطع عن قلبه حبال التعاليق، وصفا سره من خباط التخاليط، وصار منفرداً بالقصد إلى الله سبحانه وتعالى، تخلص من عقبة الخَلْق، واستقام له الانفراد بالفرد والاستئناس بربه من ربه تبارك وتعالى، ثم يستعينه سبحانه فيعينه بإعانته، فيديم هذه الحالة له تبارك وتعالى. استقبلته عقبة النفس بكل ما فيها من الجهل والغفلة والنسيان والفترة، التى هى أصعب العقبات بلية وأشقها وأطولها وأبعدها مسافة، وهى عقبة كؤود أعظم العقبات وأصعبها وأمرها. فتقول له: يا عبد الله أين تذهب؟ أنا نفسك، بقاؤك بى وقيامك بى، وأنت لا تقوى على جميع ما تصنع إلا بى، ولا تتصلح لك أمور الدارين إلا بى لا بد لك منى.

فإذا نظر العبد إلى نفسه وتركيب أساسها وتطبيع بشريتها وأساس خلقتها، فإذا هى مملؤة بكل هوى وشهوة مشوبة بكل العيوب وكل عثرة، مائلة إلى كل بلاء وآفة، أمارة بكل خطأ وزلة، مركبة بكل فساد وفتنة مربوطة بكل كسل وفترة، ثم إنه يرى نفسه عند عبادة الله عز وجل كسلانة، وفى حالة الكسل والفترة كأنها ميتة جيفة لا تتحرك، ويراها عند الحرص فى الدنيا كأنها وعاء لا يُملأ، ويراها عند الحسد كأنها نار تلتهب، ويراها عند الطمع كأنها خنازير تحرق الأرض عند جوعها، ويراها عند الفخر والعلو كأنها تدعى الربوبية، ومع هذا يرى أن الشيطان قد صار واحداً منها مع كيده وإضعاف مكره وكثرة حيله بهلاكها. فعند ذلك يعتصم بالله تعالى ويستعين به على مقتها ومخالفتها، ولم يشتغل بهواها ومرادها، ولم يلتفت إليها حرمة لإجلال ربه. ويقول لها: يا مأوى كل شر ومعدن كل بلاء، إن الذى لا بد منه هو الله عز وجل، وهو الواحد القهار قادر على أن يغنينى عنك.

فلما جاوز العبد هذه العقبة وقطع عن قلبه حبال التعاليق وصفا سره من غبار التخاليط، فصار مجرداً القصد إليه، وتخلص من هذه العقبة واستقام له أمارة التقوى بعون الله وتأييده، فعند ذلك استقبلته عقبة الجنة بكل ما فيها من الثواب والعقاب وطلب العوض من الله تعالى على وفاء صدق العبودية، التى هى أصعب وأعظمها بلية وأدقها آفة وأعظمها صعوبة لأهل القرب والمحبة بالنسبة إلى غيرها بالف الف مرة، وقالت له: أين تذهب يا ولى الله؟ أنا دار الخلود والمقام ومحل التحية والسلام، أنا دار النعمة والجود ومعدن الغبطة والسرور، أنا دار الجلال والجمال والنزاهة والكمال، أنا دار الأنبياء والأصفياء ومعدن الأتقياء والأولياء، أنا أجر العاملين وجزاء الصابرين

وثواب المطيعين أبد الآبدين، أنا خُلقت لك وزينت لأجلك، ليس لك دار غيرى ولا منزل سواى ولا مأوى دونى، فلابد لك منى.

فإذا نظر العبد إلى أولها وأوسطها وآخرها، فإذا أولها لم تكن شيئاً فصارت مكونة بتكوين الله تعالى، وإذا نظر إلى أوسطها كأنها لم تزل لله تعالى ليس لغير الله تعالى فيها شىء. انظر إلى آدم لما عصى الله تعالى، تبرأت منه الجنة بكل ما فيها، فلم يصحبه بعد ذلك من الجنة إلا ورقة، وتبرأت منه بما فيها وأذاقته الهوان والمذلة، وأما آخرها فشغل شاغل يشتغل بها العباد عن سيدهم ومعبودهم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾ يس ٥٥، ومع ذلك فإن العبد لا يصل إليها، وإنه يصل إلى الله تعالى فى كل نَفَس بل فى كل طرفة عين، بل أقل من ذلك، قال الله تعالى: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ العلق ١٩، فعند ذلك يعتصم بالله تعالى، ويستعين به على قطع علائق ما دونه، ولم يشتغل بها، ولم يتلفت إليها إجلالاً لحرمة ربه. ويقول لها: يا محل الأنبياء ومعدن الأولياء، إن الذى لابد منه هو الله عز وجل، وهو قادر على أن يُغنينى عنك لأن الحاصل من الدارين هو الله عز وجل.

فلما جاوز العبد هذه العقبة وقطع من قلبه حبال كل علاقة به، وصفا سره من غبار التخاليط، وصار قلبه منفرداً للواحد الفرد، واستراح من تعب هذه العقبات، واستقامت له أمارة التجريد والتفريد، فحينئذ يواصل محبوبه، ويتولاه من هو لا يرى خيراً إلا منه، ونِعْمَ من مولى ومعين جلَّ وعز، فحينئذ استقبلته عقبة العطايا والكرامات والمواهب والمقامات، وهى لا تحصى عدداً، فهذا أوان غض بصره عنها، وأن لا يلتفت لها ولا إلى شىء منها حرمة لإجلال ربه، ثم يبسط له ما يبسط من المحن والبلايا، نوع بعد نوع، وغير ذلك مما لا يصفه واصف غيره، ففى كل ذلك يقول: يا حبيبى وقرة عينى ويا غاية أملى، اتوسل بك عليك أن لا تصرفنى عنك ولا تكلنى إلى سواك، فلما علم الله منه صدق القصد إليه وانقطاعه بالكلية، وصار فرداً لفرد طالباً مواصلته قاصداً قربه، أوصله إليه وقربه منه أقرب من الروح إلى الجسد، ثم بقى معه إلى الأبد، وتولاه الملك العزيز الذى جلت صفاته وتقدست أسماؤه، وصار لسان حاله ينشد ويقول:

طوفى يا نفس كى أقصد صمدا ... وذرينى لست أبغى غير ربى أحدا
فهو حسبى وأنيسى فاجعليه عضدا ... للخطايا غافر من نحاه سعدا
ابك إن لم تجد من دونه ملتحدا ... ومن تولى عنه يسلكه عذابا صعدا

الباب الثانى

فى ترك الوقوف مع المنازل والمقامات
عند القصد إليه

اعلموا معاشر القاصدين إلى الله تعالى أن العبد لا يزال من الله تعالى والله منه، ما لم يَمِلْ إلى غيره، ولا يقف إلى شىء من دونه، ولا يلتفت منه إلى شىء سواه، بل هو الكافى، فمن اكتفى به كفاه، ومن مال قلبه إلى غيره سقط من عينه، وصار والعياذ بالله مُبعداً مطروداً محجوباً عنه، وأن الله تعالى إذا أراد أن يختار عبداً من عبيده وأن يصطفيه لنفسه من بينهم ويخصه به، قربه منه وجعله من أهله، فلا يدعه يميل إلى غيره أو يقف مع شىء من المنازل والمقامات، ومن وقف مع شىء بقى معه، بل يجعله فرداً فى القصد إليه، ربانى الهمة روحانى السر، ليس له قصد إلا الله، فكلما قصده بصدق الإرادة مع هيجان نار الاشتياق، وعلم الله من قلبه صدق الإرادة، أجلسه على مركب الإنابة إليه، ثم يربيه بكمال لطفه ويتحفه بلطائف بره وإحسانه وجميل فضله وامتنانه، فعند ذلك يُبصر العبد طول غفلته وتقصيره بحقوقه وكثرة إعراضه عنه، فصار من شدة حيائه متحيراً مدهوشاً، مرتحلاً بالكلية عن جميع البطالات والغوايات إلى الله تعالى، وصارت النفس مقهورة تحت رؤية اطلاعه عليه، فعند ذلك يقوم هذا العبد بقدمى الحياء والخشية على بساط التوبة.

فإذا استحكم له مقام التوبة وكاد قلبه أن يقف عليه إلى الموت واكتفى بها وسكن إليها ورضى من الله تعالى بها، أتى إلى سره نداء الحق سبحانه وتعالى: (عبدى ما لك تقف عنى اكتفيت بدونى وملت إلى غيرى وأنا محل آمال كل مؤمل، إنى أنا الذى تبت عليك حتى تبت وأنبت، عبدى إلىَّ إلىَّ)، فعند ذلك تهيج من سره نار الاشتياق إلى قربه، ويطير سره بأجنحة الهمة نحو ندائه على صدق الإرادة قاصداً إليه، فلما علم الله من قلبه صدق الإرادة أجلسه على مركب العبادة، ثم يريه جميل عطائه وجزيل كراماته لأهل خدمته وبسط له ميدان طاعته، لوفاء صدق عبوديته، فعند ذلك يبصر العبد عيوب نفسه، وكثرة آفاتها حتى يتقيها ويخالفها، وينزلها منزلة الذل والهوان، فعند ذلك يصير حراً من عبوديتها، واستراح من أنواع شغلها، وصحت له العبودية لمولاه تبارك وتعالى، وصارت النفس منقادة تحت أثقال العبودية، ويقوم هذا العبد على قدمى الفقر والفاقة على بساط العبادة، فعند استحكامه مقام العبادة يكاد قلبه أن يقف عليها إلى الموت، ويكتفى بها ويسكن إليها ويرضى من الله تعالى بهذا القدر، فيأتى من الله تعالى النداء إلى السر، فيقول: (عبدى أوقفت

واكتفيت بدونى وملت إلى غيرى، وأنا محل آمال كل مؤمل، إلىَّ إلىَّ، عبدى لولا توفيقى لما أطعتنى، لا تنظر إلى طاعتك، أنا المقصود والمطلب)، فحينئذ تهيج من سره نار الاشتياق إلى القرب من المولى الخلاق، فيطير بأجنحه الهمة نحو ندائه قاصداً لمواصلته بصدق الإرادة، فلما علم الله من سره صدق الإرادة أجلسه على مركب الخوف والخشية، ثم يريه خفيات مكره تحت جميل ستره، ودقائق استدراجه فى جزيل نعمه، وإظهار فضله لأهل عدله وإظهار عدله لأهل فضله، فعند ذلك يُبصر هذا العبد آفات رؤية الأعمال والاغترار برؤية صفاء الأوقات، فحينئذ يفزع من مكره ويخاف حقائق معلومة فى سابق علمه، ويطير فؤاده ويشتد كمده وحزنه، حتى كأنه قامت قيامته وضاقت سبله ودام تحيره وكَلَّ لسانه ودهش عقله، وصار من جميع الراحات بعيداً وعن جميع الخلائق فريداً.

فإذا استحكم له مقام الخوف، يكاد قلبه أن يقف عليه إلى الموت واكتفى به وسكن إليه ورضى من الله تعالى بهذا القدر أتى إلى سره نداء الحق سبحانه وتعالى، ويقول: (عبدى ما لك تقف وتكتفى بدونى، وتميل إلى غيرى، وأنا محل آمال كل مؤمل، إلىَّ إلىَّ، عبدى لا تنازعنى فى مثل ذلك)، فحينئذ يهيج من سره نار الاشتياق إلى قربه، ويطير السر بأجنحة الهمة نحو ندائه، قاصداً إلى مواصلته على صدق الإرادة، فلما علم الله من سره صدق الإرادة أجلسه على مركب المحبة والشوق إليه، ثم يريه ما يقرُّ به عينه، ويرشده إلى ما يطيب به قلبه، ثم أقعده على موائد أنسه، وسقاه بكأس مودته شربة بعد شربة حتى يسكن به عن غيره، ثم يمحى عن قلبه كل تمن لدونه، ويقطع عن قلبه كل شىء يشغله عن مقصوده ومحبوبه، حتى لا يجد ألم البلايا من حلاوة قربه، ولا يؤثر عليه شىء فى الدارين، ولا ينصرف عنه بالكونين ولا يلتفت منه إلى الثقلين لحرمته.

فإذا أقام هذا العبد بقدمى الاعتراف على بساط الوداد واتحكم له مقام المحبة، وكاد قلبه أن يقف عليها إلى الموت واكتفى بها وسكن إليها أتى إلى سره نداء الحق سبحانه وتعالى يقول: (عبدى مالك تقف وتكتفى بدونى، وتميل إلى غيرى وأنا محل آمالك وكل مؤمل، عبدى هلم إلى لا تنازعنى فى مثل ذلك)، فعند ذلك يهيج من سره نار الاشتياق إلى قربه، ويطير بأجنحة الهمة نحو ندائه قاصداً إلى مواصلته على صدق الإرادة، فلما أجلسه على مركب القرب من الله عز وجل والأنس به، ثم كشف عن سره الحجب والأستار، حتى ينظر إليه بلا كيف يعنى الفؤاد، ويسمع لذائذ كلامه بالتحية والسلام، ثم يصفى كليته من غبار البشرية، ويطرقه إلى مهيمنة الصديقين، ويجعله من العدد المجردين عن عبودية من سواه، ويشاهد من لطائف قدرة القدير، فعند ذلك

يدور قلبه حول منتهى عزه ويرتع فى روضات قدسه، ويطير بجناح الاشتياق فى سرادقات غيبه، ثم يدخله الله تعالى فى دار وصلته، ويغشيه بنور افتخاره ويطلعه على أسرار مكنونه ويرشده إلى نفسه، ويشرفه على كمال لطفه، حتى تصير همته علوية وأحواله قدسية وإرادته ربانية، وحركاته فردانية وأنفاسه نورانية وصفاته ديمومية، وأحواله غير موصوفة، وخصاله غير مدركة، لأنها ودايع سره الذى منه بدا وإليه ويعود.

فإذا قام هذا العبد على قدمى الصدق والوفاء والصفاء، على بساط الصدق والقرب والنجوى، وكاد أن يقف ويستند على ما ذكرنا من الوقوف فى المنازل والمقامات، عن القصد إليه واكتفى بها قلبه وسكن إليها ورضى بالوقوف عليها إلى الموت، ورضى من الله تعالى بهذا القدر أتى إلى سره نداء الحق سبحانه وتعالى: (عبدى ما لك تقف وتكتفى بدونى، تميل إلى غيرى وأنا محل آمال كل مؤمل، عبدى هلم إلى لا تنازعنى فى مثل ذلك)، فحينئذ يهيج من سره نار الاشتياق إلى قربه، ويطير السر بأجنحة الهمة نحو ندائه، فلما علم الله تعالى من سره صدق الإرادة وأجلسه بقربه منه أقرب من الروح إلى الجسد، وهى حالة التجلى والمشاهدة، وهى التى تفنى الكلية فى جنبها، ويبقى الحق كما كان هو فى الأزل قبل أن يكون التكوين والمكونات، ثم بعد ذلك تأتيه أحوال وأوقات، تكل الألسن عن نعتها وصفتها، سبحانه من منعم متفضل.

قد تركت الإشارة إلى تلك الأحوال غيرة أن أضعها فى كتابى، فإن أهلها قليل، وكل من عرف إشاراتنا، ووقف على ما ذكرنا من ترك الوقوف فى المنازل والمقامات عند القصد إليه... فَبَخٍ بَخٍ، وإلا سأذكر لك نداء الحق سبحانه وتعالى واستماع العبد له، فإن نظرت فيه ووقفت عليها، قال شاعرهم رضي الله عنهم:

قلوب القاصدين نحو الحق طائرة مرت كراديسهم والناس نُوام



الباب الثالث

فى بيان نداء الحق سبحانه وتعالى إلى القاصدين إليه واستماعهم له

اعلموا معاشر القاصدين إلى الله تعالى أن لله تعالى عباداً اصطفاهم وصفاهم لنفسه، اختصهم لصحبته واختارهم لأنسه، وأكرمهم بقربه وطيبهم لذكره ومناجاته، وأعطاهم قلوباً كشف عنها حُجب الأغيار، وأطلعها على أبحر الأنوار، وأشرفها على خزائن الأسرار، وطرق لها سبل سُنن الأبرار، وأجلسها على سُرر الأحرار وغشيها بنور الافتخار، ولهذه القلوب ساكنة غامضة غاب عنها كل تمن بل لا يخطر الوهم بدونه وصارت بالكلية مطمئنة إليه، مستأنسة به مستقيمة معه لا تلتفت منه إلى الدارين ولا تنصرف عنه بالكونين هيبة لإجلاله وتعظيماً لحرمته، لهذه القلوب والأسرار التى ذكرناها أبصار ينظرون بها إلى جلال الله وعظمته وكمال ربوبيته ولطائف صنعه، ولها أسماع يستمعون بها نداء الحق سبحانه وتعالى، وحسن مخاطبته، ولطائف معاتبته، وصنوف دعوته إلى نفسه، ولها ألسن يجيبون بها بصدق التلبية وحسن التناجى مع غاية الاحتراف إليه، فلا الله سبحانه وتعالى يسكن ساعة من ندائه وحسن مخاطبته فيما يدعوا أحبائه إلى نفسه، ولا هم يملون من الإجابة عندما يناجونه بالتلبية سبحانه وتعالى، ولهم ما يشتهون، فلو أن عبداً من هؤلاء العباد الذين ذكرنا نعتهم ووصفهم، التفت إلى شىء من المنازل والمقامات، أو مال إلى شىء من المواهب والكرامات أتى إلى سره نداء الحق سبحانه وتعالى: (عبدى ما لك تقف منى وتميل إلى غيرى، وأنا محل آمال كل مؤمل، وأنا الذى جعلت آمال أحبائى متصلة بى، عبدى هلم إلى لا تنازعنى، عبدى ها أنا لك بالكلية سيداً وافياً وفرداً وحيداً من الشركاء أبد الآبدين، فكن أنت لى بالكلية عبداً مطيعاً وفرداً وحيداً من الأغيار أبد الآبدين، عبدى أما تذكر كمال تودد بك فى كل حال وحسن عنايتى معك فى قديم الأزل وذكرى لك فى الأزل، عبدى ألم أكرمك بمعرفتى وربيتك بمحبتى وأرشدتك إلى نفسى وطيبتك بذكرى حتى صرت لى بالكلية عبداً، كما كنت أنا فى الأزل بالكلية لك رباً، عبدى ادن منى واسكن معى ولا تبتعد عنى، ولا تلتف منى إلى غيرى، فتسقط من عينى، عبدى من أوصلك إلى غيرى، أليس أنا الذى تلطفت بك حتى وقعت الوصلة بينى وبينك؟ حتى صرت من أهل ولايتى لولا أنى أردتك وشئت ذلك، من غيرى يقدر إن لم أردك لى يجعلك من أهل قربى، أحببتك فحببتنى، وذكرتك فذكرتنى، أعليت همتك حتى تمنيت على فأجبت دعوتك، وربيتك حتى صرت من أهل مخاطبتى، عبدى أنا خلقتك ورزقتك، وأردتك بى،

وقبل ذلك جعلت لك إرادة، ليس لك حيلة إلا بى، وقلبك بيدى وكليتك لى، فإن سلمت كليتك لى واكتفيت بى عما لى، كنت لك بكل ما لى أبد الآبدين، وإن لم تكتف بى عما لى، بقيت منقطعاً عنى وعن كل ما لى)، فلم يزل المولى جلا وعلا بمثل ذلك يدعوه إلى نفسه، حتى صيره بالكلية له مجرداً، أو قربه منه أقرب من الروح إلى الجسد، فهذا بيان ما ذكرناه من نداء الحق سبحانه وتعالى إلى سر أحبابه وأصفيائه وأهل قربه تعالى.

فمن علم هذه العبارات وأدرك هذه الإشارات وعرف معانى هذه الكلمات... فبَخٍ بَخٍ، وإلا سأذكر لكم ما قال الله سبحانه وتعالى فى الكتب المنزلة على أنبيائه فى نعت الأصفياء وندائه لهم، فيما يدعوهم إلى وصله وقربه، وفيما يخاطبهم ويعاتبهم حين مالت قلوبهم إلى غيره، فهذا ما روى فى الأخبار أن الله سبحانه وتعالى يقول فى بعض الكتب المنزلة: (وعزتى وجلالى وكبريائى، وارتفاعى فى عُلاى أنى لأقطع أمل كل مؤمل لغيرى بالإياس منه، يؤمل عبدى غيرى والخير كله بيدى، إنى جعلت آمال خلقى متصلة بى فما لعبدى مُعرضاً عنى، عبدى تنعم بى واستأنس بى فإنى لك خير من كل ما سواى فى الدنيا والآخرة، عبدى ألم أذكرك قبل أن تذكرنى، وأحبك قبل أن تحبنى وأردتك قبل أن تريدنى، عبدى أما تستحى منى إذ أعرضت بوجهك عنى، أيليق بك أن تلتفت منى إلى غيرى، أين تذهب وطريق الخير والفلاح والنجاح والوصلة إلىَّ، عبدى أين من أتانى فلم أقبله، وأين من دعانى فلم أجبه، وأين من أملنى فقطعت أمله منى، عبدى بابى لك مفتوح، وعطائى لك مبذول، وأنا أرحم الراحمين).

وروى أيضاً أن الله سبحانه وتعالى أوحى إلى يحيي بن زكريا عليهما السلام: (يا يحيي إنى قضيت على نفسى أن لا يحبنى عبد من عبادى - أعلم ذلك من قلبه - إلا كنت سمعه الذى يسمع به وبصره ولسانه، وأبغض إليه كل شىء دونى وأمنع عنه شهوات الدنيا ولذاتها، وأطلع عليه فى كل يوم سبعين الف مرة، وأزيد له فى كل ساعة من لذائذ حبى وحلاوة أنسى وأشدد شوقه لى وأملأ قلبه نوراً من نورى، حتى إنه فى كل ساعة ينظر إلى لطائف صنعى وكمال تودد، وأمسح برأسه وأضع يدى على ألمه حتى لا يشكو منى إلى غيرى، وكلما أسمع خفقان قلبه من الشوق إلى لقائى، ازددت شوقاً إلى لقائه، لولاى لم يشتاقنى). فقال يحيي: (حقيق على أن لا يسكن قلبى حتى أصل إليك). فقال له الرب جل جلاله: (يا يحيي وكيف يسكن قلب المريد المشتاق، وأنا غاية منيته، ومنتهى أمله، وأنا فى كل ساعة أتقرب منه حين يتقرب منى، وأسمع كلامه وأعلم أسفه وأحب صوته، يا يحيي: فبعزتى وجلالى لأبعثه يوم القيامة مبعثاً يغبطه به الأولون والآخرون، ثم آمر منادياً ينادى تحت عرشى

هذا فلان بن فلان، هذا ولي وصفي، أنا الله لا إله غيرى، دعوته لتقر عينه بالنظر إلى وجهى، يا ملائكتى ارفعوا الحجاب فيما بينى وبين حبيبى، حتى ينظر إلى وجهى، كيف يشاء، وأنا الذى ابتدئه بالسلام، أقول له السلام عليك يا عبدى أبشر فوعزتى وجلالى لأتخذك لنفسى)، فقال يحيى عليه السلام: (سبحانك يا رب)، ثم صعق صعقة عظيمة لم يفق إلا بعد ثلاثة أيام، فلما آفاق قال: (سبحانك يا رب عجباً لمن عرفك كيف يشتغل بغيرك، سبحانك ما أكثر تودد إلى أولياؤك وأصفيائك يا خير مأمول وخير مقصود أنت أنسى ما بقيت، وصاحبى ما حييت وجليسى بك اكتفيت)، وفى بعض الكتب المنزلة أن الله سبحانه وتعالى يقول: (وإذا كان الغالب على عبدى الاشتغال بى عن غيرى، جعلت لذته فى ذكرى، وهمته فى محبتى والأنس بى، ورفعت الحجاب فيما بينى وبينه، وكنت له سمعاً وبصراً، وكنت ممثلاً بين عينيه حتى كأنه ينظر إلى، لا يسهو إذا سهى الناس، ولا يغفل إذا غفلوا، أولئك كلامهم كلام الأنبياء، بهم أصرف الزلازل والعذاب عن أهل الأرض، أولئك أوليائى حقاً، لهم عندى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وإنى أسمع أنينهم وأرى بكاءهم من شوقى، وأعلم خفقان قلوبهم من أجلى، وكل ساعة أنظر إليهم فأنى حلفت لأرفعن الحزن من قلوبهم حتى يستريحوا بى ويعلموا أنى لهم نعم المولى فى الدنيا والآخرة).

وروى فى بعض الأخبار أن الله سبحانه وتعالى أوحى إلى داود النبى عليه السلام أن: (يا داود أخبر أهل الأرض وأعلمهم أنى ذاكر من ذكرنى، وحبيب من أحبنى، وأنيس من أنس بى، وموجود لمن طلبنى، هلموا إلى مصاحبتى، وتسارعوا إلى قربى، وتهيئوا إلى زيارتى، يا داود إنى جعلت طيران قلوب المشتاقين نحوى، وجعلتها فى الأرض موضع نظرى، وأطلعتها بى (أى جعلتها ناظرة إلى) حتى ازداد لها شوقاً بى إلى لقائى، وأريهم فى كل ساعة جزيل كرامتى ولطائف صنعى وحسن امتنانى، حتى لا يأنسوا ولا يميلوا إلى غيرى، ولا يصبرون عنى ساعة شوقاً إلى لقائى، وجعلت آمالهم متصلة بى، وفتحت لهم أبواب أنسى ومناجاتى، يا داود ما لعبدى والإعراض عنى، وأنا أقول إلىَّ إلىَّ، يا داود وأنا محل الآمال، فما لعبدى أن يقطع الآمال منى، يا داود إذا كان الغالب على عبدى الاشتغال بى عن غيرى، جعلت راحته ولذته فى ذكرى، وكنت أنا مثالاً بين عينيه حتى لا ينسانى، يا داود ألا طال شوق الأبرار إلى لقائى، وإنى إليهم لأشد شوقاً، ألا من طلبنى وجدنى، ومن طلب غيرى لم يجدنى، بل ولم يجد غيرى، يا داود حبيب يحب خلوة حبيبه يتلذذ بأنسه، وأنا مطلع على قلوب أحبائى، أرى تلذذهم بأنسى وانفرادهم بى عن غيرى، يا داود قل للمتلذذين بأنسى هل وجدتم طبيباً أكبر منى، يا داود أنا خبير بأحبابى، وأنا مطلع على خفقان قلوبهم، فإذا جنهم الليل جعلت

أبصارهم فى قلوبهم وقلوبهم عندى، ومثلت نفسى بين أعينهم، فلولا أنى قد ربطت أرواح أحبائى فى أبدانهم لطارت شوقاً إلى وسروراً بى، يا داود احذر أن تجعل بينى وبينك عالماً سكران يصدك عن ذكرى، ويدعوك منى إلى غيرى، ويقطع عليك طرق الوصلة والقرب منى وأنت لا تشعر، يا داود أكثر الخلق قاطع طريق القلوب عن طريق الأبرار، يا داود إن أقل ما أنا صانع بالقلب المحب للشهوات أن أسلبه حلاوة ذكرى ولذائذ مناجاتى، لأنه محجوب عنى، يا داود أنا حبيب القلوب، وأنا علام الغيوب وأنا نعم المولى ونعم النصير).

لو ذكرنا فى كتابنا هذا من نعت الأولياء الذين ذكرهم الله تعالى للأنبياء والرسل لطال الباب وأمتد الخطاب، ولكن العاقل يكتفى بدون ما بينت، فاقتصرت على هذا المقدار واكتفيت، وبالله التوفيق على إجابة ندائه لنا بصدق الإرادة فى القصد إليه، وعلى ما يحب ويرضى، فإنه ذو الفضل والمن العظيم.

❁ ❁ ❁

الباب الرابع

فى إجابة القاصدين نداء الحق بعد استماعهم له

اعلموا معاشر القاصدين إليه أن لله تعالى فى كل ساعة نظرة إلى قلوب الأصفياء وأهل الوداد، ولهم في كل ساعة نظرة إلى الله تعالى بعين الفؤاد، ولا يزال المولى يدعو أحباءه إلى نفسه، ويقول: (أصفيائى وأحبائى إنى أنا الله لا إله إلا أنا، هلموا إلى مصاحبتى، وتهيئوا إلى مؤانستى، وبادروا إلى قربى ووصلتى، فإنى لكم حبيب فى الدارين جليساً وأنيساً)، وهم يجيبونه بلسان الافتقار، ويقولون: (لبيك اللّٰهُمَّ لبيك، لبيك يا منان القلوب، لبيك لبيك لبيك يا سرور القلوب، لبيك لبيك من الدارين، لبيك لبيك بدعوتك إليك من كل ما سواك لبيك، وإليك بل منك إليك لبيك، لبيك بمصاحبتك والقرب منك لبيك، لبيك يا دليل القاصدين إليك لبيك، لبيك لبيك لبيك، يا مراد المريدين وأنيس المستأنسين إليك لبيك، لبيك لبيك يا قرة عين العارفين، وثمرة فؤاد المحبين لبيك، لبيك يا سيد السادات، ومولاى ومنتهى رغبتى، وغاية أملى لبيك، أبد الآبدين لبيك، لبيك

كما أنت أهله لبيك، لا ملجأ ولا منجا ولا مفر منك إلا إليك، وأنت كما أثنيت على نفسك، لا أحصى ثناء عليك، اللّٰهُمَّ أنت شفيعى منك، وأنت دليلى منك إليك، وأنت معينى فيك لديك، يا حبيب القلوب والأنيس الأكبر بك عليك أن لا تحجبنى بك عنك، يا أقرب من كل قريب، وبك عليك أن لا تبعدنى منك، يا غاية أملى سلام على الدارين بما فيها لدعوتك، سبحانك سبحانك سبحانك عجباً منى ومنك ما أشد تودد لى منك، وما أكثر الدلال منى إليك، سبحانك سبحانك عجباً للخليقة كيف أرادوا بك بديلاً! أم كيف اختاروا عليك كفيلاً! أم كيف أثروا سواك دليلاً! سبحانك سبحانك ما أطيب وما ألذ اتفاق الإلهام منك على خطرات القلوب، وما أحلى المشى إليك بالأوهام فى طرقات الغيوب سبحانك، سبحانك ما أدق ما لا يمكن للخلق وصفه، وما أخفى ما لا يمكن عن الخلق كشفه، وما أظهر ما لا يمكن عن الحق كتمه، سبحانك سبحانك ما أطول غم ما لم يكن للوصال أهلاً وما أقل سرور ما لم يكن له من محبتك نصيباً، إلهى بك أقسمت عليك أن لا تبتلينى بغم الإبعاد منك بعدما زينتنى بسرور القرب منك، ولا تضربنى بسيف الهجران بعدما أحييتنى بروح الوصال إليك، إلهى طوبى لعبد قام بين يديك، وانقطع قلبه إليك، واكتفى بك منك لديك، طوبى لبدن انتصب لك لديك، وقصد بك إليك واعتمد بك عليك، طوبى لعين نظرت منك إليك، وبكت فيك إليك، وقفلت عن كل ما سواك إليك، إلهى كيف تبكى عين ضحكت منك إليك، أم كيف لا تبكى خشية أن تكون يوماً حسرة عليك، إلهى ضحكى من حيث بكائى، وبكائى من حيث ضحكى، وسرورى من حيث غمومى، وغمومى من حيث سرورى، إلهى دائى من حيث دوائى، ودوائى من حيث دائى، إلهى كيف أبكى وقد عرفتك! أم كيف أضحك وقد جفوتك! إلهى كيف أحزن وأنت كما أنت الحبيب المحبوب! أم كيف أفرح وأنا كما أنا الخسيس المعيوب! إلهى كيف يكون غريباً من أنت غاية أمله، ومن الدارين نصيبه! إلهى منك ضحكى ومنك أيضاً بكائى، أنت دائى وأنت أيضاً دوائى، إلهى فيك عزى وفيك أيضاً هوانى، حسبى من سؤالى علمك بحالى، حسبى من دوائى علمك بدائى، حسبى من حياتى علمك بجفائى، حسبى منك وداً أنى لم أجد منك بداً، حسبى منك حسرة إن بقيت منك منفرداً مبعداً مطروداً فرداً، إلهى بك أنت افتخارى، إذا نظرت منك إليك وأنت أنيسى، إذا نزلت منك عليك وأنت سرورى، إذا أتيت منك لديك، إلهى لسانك تمام ما أغنيت وتحقيق ما أرعيت وتدويم ما أعطيت وأعوذ بك منك).

إلهى ارحم انقطاعى إليك، وانفرادى بك، وغربتى فى بلادك، ووحشتى بين عبادك، إلهى لا لى منك ولا لى فيك حيلة، ولا لى من صبر، ولا لى مع سواك أنس فالمستعان منك إليك، إلهى كيف ينساك

من لا يغيب عنك! أم كيف يغيب عنك من لا يصبر ساعة منك! أم كيف يصبر عنك من قد صار محترقاً بنار حبك! أم كيف يقوى على هجرك من تيمه حبك! إلهى أنت حسبى من الدارين، ومن جميع الخلائق حبيباً وأنيساً، يا مؤنسى وأنيسى يا صاحبى وجليسى، إلهى ما أعظمك وأجلك، إلهى ما ألذ ذكرك والأنس بك، وما أحلى خدمتك والشغل فيك، إلهى ما أوحش قلب ليس فيه أنسك، وما أخرب قلب ليس فيه ذكرك، وما سرورى بك فى حال الملاقاة، إلهى بسرورى بك بطل عنى الغموم، وبشغلى فيك أزال عنى الهموم، أسألك سؤال من لا يعرف بالربوبية غيرك، أن تعتقنى من عبودية ما سواك حتى أكون أسير مننك ورهين كرمك وغريق إنعامك، إلهى خلقتنى فأحسنت خلقى، وربيتنى فأحسنت تربيتى، ودعوتنى إلى نفسك باللطف دعوة، فوفقنى لما تحب وترضى يا أرحم الراحمين، إلهى لك الحمد كما أنت أهله وكما ينبغى لكرم وجهك، وعز جلالك وعظيم ربوبيتك يا أكرم الأكرمين.

ففى هذا بيان ما ذكرنا من إجابة القاصدين نداء الحق سبحانه وتعالى، فإن أدركتم هذه العبارات، ووقفتم على هذه الإشارات فبَخٍ بَخٍ، وإلا فسأذكر لكم بعون الله تعالى مناجاة المحبين مما حكى عن أجلة أهل المعرفة، فأول ما نبتدئ به ما روى عن زين القيمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال فى مناجاته: (إلهى إذا قرت أهل الدنيا بدنياهم، فأقر عينى بك، وأقطع عنى لذائذ الدنيا بأنسك والشوق إلى لقائك).

وكان منصور بن عمار يقول فى بعض مناجاته: (إلهى إن قربتنى فمن الذى يبعدنى، وإن عززتنى فمن الذى يذلنى، إلهى كيف يذل من مالكه عزيز! أم كيف يفتقر من مالكه غنى سيد السادات! إلهى إلى من أذهب وأنت مولاى، وبمن أرجو وأنت مُناى، وبمن أستأنس وأنت حبيبى وغاية أملى، وأسالك إتمام ذلك على، يا نعم المولى ويا نعم النصير).

وقال يحيى بن معاذ الرازى رضي الله عنه فى بعض مناجاته: (إلهى سرى مكشوف وأنا إليك ملهوف، وأنت لم تزل بالجود موصوف، إلهى أنت أنيس المستأنسين من أحبابك، وجليس الملهوفين من أوليائك وسرور العارفين من أصفيائك، إلهى أنت الذى لا يخفى عليك أحوال المريدين، ولا يبطل عندك أمل الآملين ولا يخيب لديك رجاء المنيبين، سبحانك سبحانك).

وكذلك كانت رابعة العدوية البصرية تقول فى بعض مناجاتها: (إلهى أجل العطايا فى قلبى رجاؤك، وأعذب الكلام على لسانى كلامك وثناؤك، وأحب الساعات إلىَّ ساعة يكون فيها لقاؤك، إلهى لا

صبر لى فى الدنيا عن ذكرك، فكيف أصبر فى الآخرة عن رؤيتك! إلهى أشكو إليك غُربتى فى بلادك، ووحشتى بين عبادك).

وكذلك كان منصور بن عمار يقول فى بعض مناجاته: (إلهى أنسى بك ووحشتى من خلقك ومعرفتى بك تمنعنى من مناجاة غيرك، إلهى حبك عطش كبدى وأوحشنى من ولدى وأضاق على بلدى، سبحانك سبحانك، عجبت لمن يعرفك كيف لا يستغنى عن غيرك بك أم كيف هو يريد سواك، إلهى من لم يكن مسروراً بك فمن أين له السرور، إلهى لا تجعلنى ممن قد صرفت عنه وجهك، وحجبت عنه عفوك، وغلقت عنه بابك، وقطعت عنه عظمتك، ووكلته إلى غيرك طرفة عين ولا أقل من ذلك يا أرحم الراحمين).

وحكى أن محمد بن كعب القرظى قال: كنت فى مسجد الكوفة فى ليلة من الليالى فبينما أنا فى نصف الليل، فإذا أنا بعلى بن الحسين زين العابدين رضي الله عنه، قد جاء ووقف بباب المسجد وهو يقول فى بعض مناجاته: يا حبيبى وقرة عينى غلقت الملوك أبوابها، وطافت عليها حراسها، وبابك مفتوح، ثم دخل المسجد وصلى ركعتين، ثم أنشد يقول:

لبيك يا من أنت مولاه ... فارحم عُبيْداً إليك ملجاه
عليك يا ذا الجلال معتمدى ... طوبى لمن كنت أنت مولاه
طوبى لمن كان خائفاً وجلاً ... يشكو إلى ذى الجلال بلواه
وما به علة ولا سقم ... أكثر من حبه لمولاه
إذا خلا فى الظلام مبتهلاً ... أكرمه الله ثم لباه

قال محمد بن كعب، فسمعت هاتفاً من السماء يقول:

لبيك عبدى فأنت فى كنفى ... وكل ما قلت قد سمعناه
دُعاك عبدى يجول فى حُجبى ... فذنبك اليوم قد غفرناه
صوتك تشتاقه ملائكتى ... فحسبك الصوت قد سمعناه
سلنى بلا حشمة ولا رهب ... ولا تخف إننى أنا الله
هذا يرى ربه ويأنسه ... سبحان من بالسلام حياه
لو هبت الريح من جوانبها ... خر صريعاً لما تغشاه

الباب الخامس

فيما ينبغى للقاصدين من التهيؤ
حتى يكونوا للمقصود أهلاً

اعلموا معاشر القاصدين إلى الله تعالى، أن العبد إذا قصد الله تعالى ومواصلته وقربه منه، فينبغى له أولاً أن يتطهر، فيطهر أولاً نفسه من نجاسة الشهوات وجوارحه من أدناس الزلات، وقلبه من رين الغفلات، وسره من كدورات الالتفات عن مولاه إلى المكونات، حتى تصير كليته طاهرة من جميع العيوب والآفات، حتى أن جميع ظواهره لو وضعت فى طبق، وطافوا بها بين أهل الأرض لم يجدوا فيها عيباً، وحتى أن طيران جميع سره لو وضع على طبق وقدموه بين يدى الملك الجليل، لم يستحى منه لعيب فيها، واعلموا معاشر القاصدين إلى الله تعالى ومواصلته، أن مثل من قصد أن يتصل إلى ملك الملوك رب الأرباب مع جميع العيوب، كمثل رجل وقع فى كنيف، وصار من رأسه إلى قدمه قذراً فأتى إلى عطار، وقال له: أريدك تطيبنى بأطيب طيب عندك. فيقول له العطار: الطيب حاضر، فما من موضع منك إلا وهو ملوث بالقذر. فيقول الرجل: فأى شىء أصنع؟ فيقول له العطار: اذهب واشتر الأشنان، وخذ من الطيب وادخل الحمام، واغسل نفسك ولباسك، ثم ائتنى حتى أطيبك من عطرى. فكذلك العبد كلما قصد إلى الله سبحانه وتعالى، فينبغى أن يشترى أشتان الانتباه وصابون الندامة، ثم يدقها بمدقة الخوف والخشية، ثم يصنع طست الاستقامة، ثم يكب عليه من ماء الحياء والتوبة، ثم يغسل به قميص وفاء العبودية من أدناس الجهل والغفلة، ومن جميع التخاليط والعلائق بأيدى الإخلاص والحرمة، ثم يلبسها برؤية التوفيق والعصمة، ثم يغسل نفسه بماء الصدق والصفوة، وبأنواع الرعاية والرياضة من أدناس الهوى والشهوة، حتى تصير طاهرة من جميع العيوب والآفات، ثم إن الله تعالى إذا نظر إلى هذا العبد ورآه مغسولاً بماء الصدق والصفوة، مزيناً بلسان الوفاء والصيانة، متقمصاً بقميص التقوى والديانة معمماً بعمائم الحرمة والاستقامة، مترديا بأردية الخشية والمهابة، متسربلاً بسرابيل الخمول والنسيان لكل ما دون الله تعالى، فعند ذلك يطيب الله قلبه بطيب مسك الهداية، ثم يجليه على سرير الوداد مرتقياً على بساط القدس متربعاً، وعلى نمارق السكينة فى أرائك الأنس مُتكئاً إلى مسند الاعتصام فى مجمع حسن الإرادة ولطائف الإشارة على حافات أنهار الزوائد فى رياض ألوان العجائب، بين خدام الفوائد مستنداً، وعلى موائد التقرب فى بساتين الألفة تحت أشجار الوصلة بين رياحين الشوق والمحبة قاعداً، ثم إذا تناول هذا القاصد أطعمة أثمار الشفقة فى كاسات الرضا بأيدى الصدق

والصفا مع الشكر، جاء فى الخدمة والوفاء قَلِيات الشكر والرضا، ثم أكل منها بإشارات الشريعة وأنامل اتباع السُنة لقم اليقين والفطنة، ومضغ فناء النفس والشهوة ونسيان الخلق والخليقة، مع طيران الأفكار والهمة فى قباب رؤية المنة، تحت ظلال التعظيم والهيبة على راية حفظ الأدب وحسن المودة، ثم إذا هاج من سر هذا القاصد عطش الاشتياق إلى محبوبه ومقصوده، مد إلى كاسات الاستئناس بأيدى الاحتراق من بحر الوداد من شراب الوصلة إلى المراد، فشرب منها شربة بعد شربة وكأساً بعد كأس، حتى سكر من كل ما سواه سكرة لا يفيق منها إلى أبد الأبد، ويا لها من عناية وولاية! ثم يا لها من دولة وهداية! ثم يا لها من بداية وبلا نهاية! ثم يا له من ملك عطوف ومعبود شريف رؤوف جل جلاله وتقدست أسماؤه.

واعلموا وفقكم الله أن العبد القاصد إلى هذه الرتبة العلية إذا بلغ هذه الغاية ووصل إلى هذه النهاية وصار بالكلية سالماً من جميع أشغال الدنيا وأهلها، وآفات النفس وأدرانها، وصار حراً من عبودية من سواه، أنزله الله على سرير الانشغال به، وأجلسه على نمارق الاتكال عليه، وأتاه عيان الإقبال إليه، فحينئذ جعل الله تعالى قلبه موضع نظره وموطن بره، وزينه بحلل جماله، وأدخله فى دار الإمارة دار علمه وحكمته، فعند ذلك يزور مقر مقصد القاصدين بالفؤاد، حول منتهى لطفه، ويرتع فى روضات قدسه، ويطير بجناح المعرفة فى سرادقات غيبه، ويجول فى ميادين قدرته وحجب جبروته، حتى يصير القاصد مكتفياً بكفايته عن كفايته وعن كفاية غيره، ومعتصماً بعصمته عن عصمة غيره، ثم يصير مستكفياً به معتصماً مطمئناً به عن كل ما سواه، ثم يصير مضروباً بسوط اشتياقه، مقتولاً من ألم فراقه، مطروحاً على فرش وداده، حتى إذا نظر الله تعالى إلى مقتوله رفعه بأيدى شفقته وغسله بماء ألفته، وحنطه بطيب مودته، وكفنه فى أكفان وصلته، وغطاه بإزار رحمته، ثم وضعه على سرير فضله، وسلمه إلى كنف لطفه، وحمله على عنق عنايته، ثم أسرع به إلى طريق رؤية امتنانه بين صنوف آلائه ونعمائه، إلى أن بلغ إلى مصلى قربه ووصلته أمر الملائكة بالتحية والصلاة عليه، ويباهى به معهم، ثم جعله عند حضرته مقبوراً وتحت حجاب القرب منه مدفوناً، ثم صيره بالكلية فانياً رميماً عن كل ما سواه، ثم صيره حياً باقياً ببقائه فى الأبد مع الأبد إلى الأبد جل جلاله، ثم بعد ذلك تأتيه حالات ومقامات كرهت شرحها غيرة عليها حتى أجد أهلها.

وفيما ذكرنا إشارات وعبارات لا تصلح للعوام الذين طُبعوا على طبائع الأنعام ولا يعرفون من نعم المنعم غير المطعم والمنام، وحسن المعاشرة مع الأنام، بل هذا يصلح لمن له سراج الديمومة ونور

الأبدية، ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ النور٤٠، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِى الصُّدُورِ﴾ الحج ٤٦.

افهموا معاشر القاصدين إلى الله تعالى ما ذكرنا لكم من بيان التهيؤ للقصد، وما ينبغى لكم فيها إن أردتم أن تكونوا للوصل أهلاً، وبالله التوفيق على ما يحب ربنا ويرضى، فإنه الموفق لما يشاء.

❁ ❁ ❁

الباب السادس

فيما ينبغى للقاصدين من رعاية النفس والروح والقلب

اعلموا معاشر القاصدين إلى الله تعالى أن هذه النفس شهوانية خسيسة لئيمة سريانها فى ملكوت الفناء، والروح روحانى قدسانى نورانى سريانه فى ملكوت البقاء، والقلب ربانى فردانى صمدانى سريانه فى ملكوت الحضرة واللقاء، فالنفس مريدة الدنيا وجميع ميلها إليها وأكثر همتها وإرادتها فى طلبها، والروح مريد الآخرة والجنة وحورها وقصورها، وأكثر همته وإرادته وميله إلى طلبها، والقلب مريد المولى، وجميع ميله إلى قربه وأكثر همته إلى وصله، فأما سبيل النفس إلى مرادها الحرص والرغبة، وأما سبيل الروح إلى مراده الوفاء والحرمة، وأما سبيل القلب إلى مراده فالشوق والمحبة.

والنفس كلما وجدت السبيل إلى مرادها بالغلبة اضطرت الروح فيها بطلب الدنيا، وإذا أصابت منيتها صار الروح فيها منغطاً ومظلماً، من حيث وجدت النفس منيتها قنعت بخساسة همتها، واطمئن القلب معها بطلب شهواتها فعند ذلك تصير همة هذا العبد شهوانية، ويصير لها بالكلية أسيراً مغلوباً، والروح كلما وجد السبيل إلى مراده بالغلبة اضطرت النفس فيها بطلب العقبى، وإذا اصاب الروح منيته صارت النفس مغطاة بنور صفوته ومعالى همته، واطمئن القلب معه بطلب النجاة من حيث رهبته، فحينئذ تصير همة هذا العبد روحانية، وصار لله تعالى عبداً مطيعاً، والقلب كلما وجد السبيل إلى مراده بالغلبة اضطرت النفس والروح فيه بطلب المولى عز وجل، وإذا صار القلب منيباً صارت النفس مغطاه بنور قربه من الله تعالى، واطمئن الروح معه بطلب

المولى على صدق وفاء العبودية بصدق انفراده بالفرد للفرد، فعند ذلك تصير همة هذا العبد ربانية، ويصير لله تعالى بالكلية عبداً واصلاً وصفياً مقرباً، لأنه قد برز إلى محبوب، وارتحل عن الكلية إليه فيطير بالنفس من طاعته إلى طاعته، ويطير بالروح من ذكره إلى ذكره، ويطير بالقلب منه إليه، فصارت نفسه مقيدة بقيد الزهد والتقوى، وصار روحه مقيداً بقيد الصدق والوفاء، وصار قلبه مقيداً بقيد القرب والنجوى، فعند ذلك يجول هذا العبد بالنفس فى ميدان حسن الرياضة والرعاية، ويجول بالروح فى ميدان رؤية المنة، ويجول القلب فى ميدان القرب والمشاهدة، فصارت النفس مقهورة تحت سلطان عقله وصار الروح مدهوشاً تحت جلال هيبته، وصار القلب مُزيناً تحت جمال ربوبيته، فحينئذ يقوم هذا العبد بشكره وشكر شكره، ويصير بالكلية مستغرقاً فى أبحر ذكره، ويجول بالسر فى منتهى عزه، ويرتع فى روضات قدسه، ويطير بجناح الهمة فى سرادقات غيبه، ويجول فى ميادين قدرته، ويسبح فى بحار هويته.

ولو أن أهل الغفلة اطلعوا على قلوب القاصدين إليه عند أوقات جولانها فى حجب الغيوب، وعند طيرانها فى سرادقات الجبروت، لماتوا حسرة من حرمان هذه النعمة، وإن جميع الذين وقعوا فى الضلالات ما وقعوا إلا لتوهمهم فى مراتب الأولياء والأصفياء، الذين جعلهم الله آية للعالمين، وهم الذين لا يعرفهم إلا من جعل الله سبحانه وتعالى له نوراً فى سراج الديمومة، فمن لم يجعل الله له ذلك النور فما له من نور.

فكل من أراد أن يكون أهلاً لمقصوده والوصول إلى قربه، فينبغى له:

أن يراعى نفسه فى مراعى القيام لله تعالى بطاعته على متابعة الكتاب والسُنة من غير أن يفتر على ذكره وخدمته طرفة عين، وأن يراعى روحه فى مراعى لطائف الحضرات، ودقائق الفكر على متابعة صدق الإرادات، من غير أن يغفل عن هيبة اطلاع ربه عليه، ودوام مراقبته طرفة عين، وأن يراعى قلبه من مراعى حجب الغيوب على متابعة القرب من الله تعالى والأنس به بنور المعرفة من غير أن يلتفت منه إلى غيره طرفة عين.

ثم ينبغى له ثانياً: أن يكون بالنفس مبعداً عن كل ما يشغله عن خدمة مولاه، وأن يكون الروح مبعداً عن كل ما يشغله عن ذكر مولاه، وأن يكون بالقلب مبعداً عن كل ما يشغله عن أنس مولاه.

ثم ينبغى له ثالثاً: أن يكون بالنفس أليف الخشية والأحزان، وبالروح أليف الطاعة والإحسان، وبالقلب أليف الأنس بالملك الديان.

ثم ينبغى له رابعاً: أن يكون بالنفس وافياً، وبالروح زاكياً وبالقلب صافياً.

ثم ينبغى له خامساً: أن يكون نفسه وحشي وروحه نعشى وقلبه عرشى.

ثم ينبغى له سادساً: أن يكون بالنفس متشمراً على باب الاصطبار، بدوام الأذكار تحت كمال الانزجار، وأن يكون بالقلب مستبشراً على باب الافتخار بدوام الانتظار نحو لقاء الله الملك الجبار، مع ثبات النفس فيما يرد عليها من أنامل العقود، ورزانة الروح تحت ما يرد عليه من شواهد الحق.

ثم ينبغى له سابعاً: أن يروض نفسه بسياط الجوع والأحزان لتنقاد له تحت أثقال الطاعة والإحسان بلا فترة ولا طغيان، وأن يروض روحه بسياط خوف الحرمان والخذلان لتنقاد له تحت ذكر رؤية الامتنان بلا غفلة ولا نسيان، وأن يروض قلبه بسياط ذكر القطع والهجران، لينقاد له تحت اطلاع الرحمن بلا علاقة ولا حسبان، حتى لا تلحق إلى نفسه سهام الاغترار ولا إلى روحه آفات خفيات الاخمار، ولا إلى قلبه غبار الالتفات عن المولى إلى المواهب والأنوار.

ثم ينبغى له ثامناً: أن يكون بالنفس مستقيماً على وفاء صدق العبودية فى طريق الحياء والخدمة على سبيل الفراغ من شغلها مع تفويض الأمور إلى الله تعالى وأن يكون بالروح مستقيماً على صدق الطمأنينة فى طريق الصدق والصفوة على سبيل التجريد بالكلية مع ترك الاختيار والتفويض إليه تعالى، وأن يكون بالقلب مستقيماً على بساط الحضرة على سبيل المجاهدة بالسر مع ترك الالتفات منه إلى ما سواه.

ثم ينبغى له تاسعاً: أن يكون على نفسه أثر العبودية، وعلى روحه صفة الفردانية، وعلى قلبه طرب الوحدانية.

ثم ينبغى له عاشراً: أن يكون مع النفس بلا نفس بنسيان حظها من الدنيا، وأن يكون مع الروح بلا روح بنسيان حظه من العقبى، وأن يكون مع القلب بلا قلب بنسيان حظه من المولى، وصار كما كان فى الأزل حيث لم تكن المكونات، وبقى الحق كما كان فى الأزل سبحانه وتعالى بلا كون ولا خلق، ولا حيث جل جلاله وتقدست أسماؤه ولا إله غيره.

معاشر القاصدين إلى الله تعالى ومواصلته، حق لكم أن لا تجهلوا قدر أنفسكم فى كل شىء، ولا أن تذلوا أنفسكم لغيره، وأن لا تلتفتوا من إلى غيره إجلالاً لحرمته، وحق لمن أقامه الله تعالى مقام أصفيائه وأهل قربه، أن لا يصحب أحداً من عامة خلقه، ولا يعمل بهوى نفسه، هيبة لجلال عظمته، وحق لمن سقاه الله بكأس محبته، ووجد لذائذ أنسه ومناجاته أن لا يشتغل بلذائذ غيره، ولا يأوى إلى قرب غيره، استحقاقاً لفردانيته، وحق لكل من ألبسه الله تعالى لباس أصفيائه ورداه برداء أحبابه، أن لا يدنسه بدنس هواجس نفسه وغبارها، ويطلب الأعواض من محبوبه ومعبوده قياماً باستحقاق الوحدانية وحرمة جلاله.

وحق لكل من خصه الله بولاية معرفته، واصطفاه لأنسه وصحبته، ألا يأنس بغيره وينسى ما دونه بالكلية بالإياس مما فى أيدى الناس والتوكل على رب الناس، فإن الإياس عن الناس هو الكيمياء استحقاقاً لصدق القصد وانقطاعاً إليه وإجلالاً لحرمة الله عز وجل، فافهموا معاشر الإخوان القاصدين إلى الله تعالى ما ذكرنا من الرعاية وشرحنا لكم بيانها لأن فيها أمراً عظيماً، فهم من فهم تحقيقاً.

❁ ❁ ❁

الباب السابع

فى مشاورة النفس والروح والقلب فى أمور القصد إلى الله تعالى

اعلموا معاشر القاصدين إلى الله تعالى أنى لما هممت بالقصد إلى الله تعالى، ونويت الإقبال إليه والأنس به إلى الأبد من غير أن ألتفت منه إلى ما سواه، ففكرت فى هذه الأمور فإذا هى أعظم الأمور قدراً وأكملها شوقاً وأعلاها منزلة، وما رأيت وراء هذه الأمور أمراً، ولا فوق هذه الدرجة درجة، ولا دون هذه المراتب مرتبة، ثم إنى فكرت فى ما ينبغى لى أن أفعله من التهيؤ حتى أكون إلى الوصلة من المقصود أهلاً، فإذا هو فى صدق الانفراد به وترك حظ النفس من الدنيا، ثم العقبى، ثم من المولى حتى أكون للفرد فرداً بلا علاقة بدون الله عز وجل، ثم إن الرسول ﷺ مع عقله الكامل وعلمه الراسخ وزهده الوافر وفطنته الزاهرة، كان يحتاج إلى المشورة، فكيف أنا؟ الأولى بى

أن استشير فى أمرى هذا من يساعدنى فيه إذ لا أجد من يساعدنى فيه، فقلت: ما أعظم هذا الأمر وما أعزه وأجله، وعلمت أن المقصود والمطلوب كلما عظم، قل فيه المساعد وقل ما يكون أهلاً له، ثم إنى أجلست النفس والهوى مع جميع أعوانهما عن يسارى، وأجلست الروح والعقل عن يمينى مع جميع أعوانهما وأجلست القلب مع جميع أعوانه بين يدى، ثم قلت لهم ما تقولون فى الله عز وجل؟ فقالوا بأجمعهم: ربنا ورب كل شىء ومليكه ليس دونه آخر يُلْجَأ إليه ولا سواه ملك يرتجى منه ولا غيره إله يخشى منه، أنيس المقربين وسرور المحبين وقرة عين العارفين، طوبى لمن عرفه وقصده ووصل إليه واكتفى به عن كل ما سواه. ثم قلت لهم: ما تقولون إن قصدت إليه وآنست به عن كل ما سواه؟

فقالوا لى بأجمعهم: وهل ينبغى لك غير ذلك، وهل خلقك إلا لهذا؟ وهل أمرك إلا بهذا؟ وهل ينبغى لك شغل أحق ما اشتغلت به سوى هذا؟ بَخٍ بَخٍ! أن كنت من أهل قربه وأنسه ومن أهل الانفراد به، نعم ما هممت به ونعم ما نويت، ونعم محبوباً إليه أتيت، ونعم مقصوداً ومطلوباً إليه دنيت وأويت، بَخٍ بَخٍ! إن وفقك الله لهذا. فقلت لهم: من أين قلتم هذا؟ قالوا: من قول الله تعالى عز وجل: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ الزمر٥٤، وقوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ الحج ٧٨، وغير ذلك من الآيات فى القرآن كثيرة.

قلت: فإن سُئلتم عن هذا الف سنة هل عندكم من جواب غير هذا؟ قالوا: لا، ثم إنى أقبلت على النفس والهوى وجميع أعوانهما، فقلت: إنى إن قصدت إلى ربى فهل تساعدونى، حتى أتخذه جليساً وأنيساً وصاحباً وحبيباً من غير أن ألتفت عنه إلى الدنيا؟ قالوا: لا. قلت: لماذا وهو سيدنا ومولانا الحاصل منه كل شىء، ولابد لنا منه فى الدارين؟ فقالوا: إن الله تعالى خلقنا من ظلمات الدنيا، وربانا بها ونحن محتاجون إلى شهواتها وراحتها ولذائذ عيشتها، وأنواع زينتها، والتمتع بطيب نعيمها، وبقاؤنا بها وفقداننا من فقدانها. فقلت: ويحكم! أما ترون إلى زوال الدنيا وفنائها وتقلبها بأهلها، أما تعتبرون بما مضى منها عليكم وعلى من دونكم، كيف أدبرت عنكم وعنهم وصارت كأن لم تكن قط وبقيت تبعاتها؟ أما تتفكرون فى وعد الله ووعيده وأمره ونهيه وإلى ما دعاكم إلى نفسه وحذركم عن الانشغال بها! فقالوا: أيها العبد القاصد إلى مولاك وحبيبك لا تشتغل بتطويل الكلام.

ثم إنى أقبلت إلى الروح والعقل، مع جميع أعوانهما وقلت: إنى إن قصدت إلى ربى على أن أخدمه على محبته لا لجنته، وأذكره تقرباً لا لثوابه، وأتخذه رئيساً وجليساً من غير أن ألتفت منه إلى عطائه

ومواهبه، فهل أنتما تساعدانى فيها وتوافقانى عليها؟ قالا: لا. قلت: لماذا لا تساعدانى فيها وتوافقانى عليها بعد أنه سيدنا وهو خير وأبقى وأجل وأعلا من كل شىء فى الدارين؟ قالا: لأن الله تعالى خلقنا من نور الآخرة وربانا بها وجعلنا محتاجين إلى إباحة الجنة، ولابد لنا منها. فقلت: ويحكم! أما ترون أن الاشتغال بالنعيم يحجب العبد عن المنعم، والاشتغال بالعطاء يحجب العبد عن المعطى! أما تعتبرون بآدم عليه السلام، حين اشتغل بالجنة واطمئن قلبه فيها وطمع فى خلودها وملكها وتعلق قلبه بها واكتفى من دون الله سبحانه وتعالى بها، كيف صار محروماً متفضحاً فى جميع الأولين والآخرين، ويحكم! أما تتفكرون فى كمال لطفه وشفقته وغاية تودده فيما يدعوكم به إلى نفسه والاستئناس به، وإلى ما حذركم عن الاشتغال بغيره! فقالوا: أيها العبد القاصد إلى مولاه وحبيبه، لا تشتغل بطول الكلام فتنقطع عن مقصودك ومطلوبك، وأنت لا تجد مؤنساً ومحبوباً غيره، فإن الأمر أعجل من أن تشتغل بالكلام.

ثم إنى أقبلت على القلب وقلت: يا قلب أنت ملك البدن وأنت محل الإيقان والأذهان، ومعدن النظر إلى الملك الديان، وأنت الذى عظم الله شأنك، ونور برهانك وأجَلَّ سلطانك، وقد جعلك الله سبحانه وتعالى معدن فكر معرفته، ومأوى ذهن فطنته، إنك أن صلحت، صلحت الأعضاء كلها، وإن فسدت، فسدت الأعضاء كلها، واعلم أن الله سبحانه وتعالى دعانى إلى نفسه، وأمرنى بالإنابة إليه، فأنا قاصد إلى ربى وعازم على أن أقيم معه إلى الأبد، وأكتفى به عن غيره، ولا ألتفت إلى ما سواه، فهل أنت تساعدنى فى ذلك، وتوافقنى عليه؟ فقال: بالرأس والعين هكذا ينبغى لى ولك أن نتخذه صاحباً وجليساً وكافياً وأنيساً، ويحك فهل خلقنا إلا لهذا! وهل أمرنا الله إلا لهذا! مرحباً بمقصودنا ومحبوبنا ومعبودنا وقرة أعيننا، مرحباً بقربه وأنسه وصحبته، فهو الغنى الذى لا يسعنا إلا فضله وجوده، ومن التفت إلى سواه فمفتقر لمفتقر.

فقلت: أحسنت هذا الذى توقعت منك، أنت رفيقى وصاحبى فى هذا الأمر، ثم قلت: يا قلب أكتب بهذا كتاب العهد وآخذ عليك ميثاق الله عز وجل، وأشهد على ذلك الشهود؟ قال: شأنك. فكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أشهد عليه قلبى، أشهد عليه الله وملائكته وأنبيائه ورسوله وعباده الصالحين فى هذا الكتاب، شهدوا جميعاً أن قلبى الذى جعله الله خزائن علمه وحكمته ومحل سره ومقر إلهامه على المبايعة والمساعدة ووافقنى على القصد إلى الله تعالى، وأن نقيم معه إلى الأبد وننفرد به طائعين له غير مكرهين، وأخذت على قلبى عهد الله وميثاقه، قد قبل منى هذه البيعة على هذه الشروط، وإنى قبلت هذه البيعة بالبراءة من الإعراض عن مقصودى

ومحبوبي بالعطايا والنعم، ولا بالبلايا والمحن أبد الآبدين. استحكمت البيعة بيننا فى هذا القصد إلى الله تعالى ومواصلته على ما بينت، وذلك فى ليلة صك النصف من شعبان سنة خمس وتسعين وثلثمائة. فلما علمت النفس والهوى استحكام البيعة بيننا فى القصد إلى الله تعالى وكمال مساعدة القلب وحسن موافقته فى هذا الأمر، وإنى قد غلبتها على مرادها وصرت لله عبداً منفرداً على التحقيق وفرغت من شغل نفسى، وصرت منقطعاً بالكلية مع الإياس عن كل ما سواه، فعند ذلك طلقت النفس والهوى وجعلتهما تحت أمر العقل وسلطانه مقهورين، وجعلت الروح والعقل مع أعوانهما تحت مراد القلب وأمره مغلوبين حتى صاروا مضطرين فيه بطلب المولى، وصاروا مسرورين بنور معرفة القلب، واطمأنوا بذكر الله وخدمته، وصرت وحدى إلى ربى، فلما علم الله منى صدق الإقبال إليه طرق لقلبى منهج الانتقال وسلك به طريق الانصراف إليه، فأراه أعلام الاتصال به وأنزله على منزل الاتكال عليه، وآتاه أعيان الاقتراب منه، وسهل له عقبة الاحتمال فيه، ثم أدخله فى قصور أنسه آمناً، وأجلسه على سرير قربه مطمئناً، ثم سقاه كأساً من محبته شراباً مريئاً، وأطعمه النجوى من كاسات السكينة بأيدى الصفوة وأنامل الحرمة، ومضغ اللسان المواصلة ما دون الحق أكلاً ومن أطيب رياحين الوصلة وياسمين القربة ونرجس المواصلة نسيماً ومسك الملاطفة وعنبر التأييد والزوائد رائحاً مشموماً، ثم بعد ذلك أحوالاً وأوقاتاً لا يصفه واصف غيره، ولا يدركه أوهام العالين، وهى حالات المشاهدة وأوقات الرؤية والمواصلة، فيا لها من حالات ما أجلها وأعظمها، ويا لها من أوقات ما أعزها وأشرفها، يختص بها من يشاء من عباده، وهو الحكيم العليم.



الباب الثامن

فى نعت القاصدين إلى الله تعالى وصفتهم وأعلامهم

اعلموا معاشر القاصدين إلى الله تعالى أن العبد كلما قصد إلى الله تعالى ومواصلته وقربه، فأول ما يجب عليه أن ينطلق بالسير على مركب المنطلقين إليه، ويبرز إلى محبوبه ويرتحل عن الكلية إليه بترك إرادة حظه من الدارين، ثم إرادة ترك حظه من الله تعالى ثم رؤيته الترك، حتى لم يبق له حظ فى الكونين، وبقى المكون كما كان فى الأزل، حيث لم تكن المكونات، فعند ذلك يطوف العبد بالسر حول منتهى عزه، ويجول بالفؤاد فى سرادقات قدسه، مدهوشاً تحت كمال قدرته، مستمسكاً بقوة عصمته، مستقيماً على وفاء أمره ونهيه، مكتفياً من غيره، مستسلماً لحكمته وتقديره، منفرداً بأنسه وصحبته، متلذذاً بذكره ومناجاته، وقد نزع من قلبه ثوب النسيان، وغسله بماء الصفوة من غبار الحسبان، ثم تزين بزى الافتقار ويرتدى بأردية الاضطرار، ويُحْرم عن جميع التعاليق والاختيار، ويلبى بتلبية الافتخار، ويصعد على عرفات الاعتذار، ويطوف بقدمى الصدق والصفا حول القرب من الملك الجبار، فمثل هذا العبد وقصده إلى الله تعالى، كمثل الحجاج حين قصدوا إلى زيارة بيت الله الحرام حين خرجوا من أوطانهم، وتركوا أهاليهم وودعوا أقربائهم ورفقائهم، فترى أبدانهم منهوكة وقلوبهم طائرة وأبصارهم طامحة نحو الكعبة، فمرة ينظرون إلى أنين الأهل والولدان يمشون على آثرهم، وينظرون خلفهم بأعين باكية، فهذا صفة حجاج بيت الله الحرام وخروجهم من المساكن والأوطان وانقطاعهم عن الأهل والولدان

فلو رأيتم معاشر الإخوان حجاج أهل المعرفة حين قصدوا إلى الله تعالى وخرجوا من أوطان الدنيا وزهرتها، وودعوا شهوات النفس وراحتها، وارتحلوا من إرادة الدارين ولذائذهما، ارتحالاً لا يحطون رحالهم إلا بقربه، فهم نزعوا ثوب الغفلة عن قلوبهم، ثم إنهم يأتزرون بمئزر الرشاد، ويرتدون بأردية الوداد، ويحرمون من صحبة العباد، ويُلَبون بصحبة الفؤاد، ويصعدون على عرفات صدر المراد، ويطوفون بقدم الصدق والصفا قرب المَلِك الجواد، فعند ذلك غابت عنهم العباد ثم البلاد ثم الرقاد، فيا لهم من قوم استقاموا على بساط التحقيق بقدم الإخلاص والتصديق منفردين بالملك الشفيق بلا خلق ولا نفس ولا تعاليق، ثم يا لهم من قوم قصدوا محبوبهم ومرادهم يقتلون أنفسهم بسيف اشتياقه، ثم يطرحونها على فرش وداده يغسلونها بماء حيائه ويحنطونها ويعطرونها ببهائه ثم يكفنونها بكفن لطفه ويأتزرونها بمئزر شفقته، ثم يضعونها على سرير

ولايته، ويحملونها على أعناق ذكر آلائه ونعمائه، ثم يسلمونها إلى أيدى حكمه وقضائه، ثم يدفنونها فى مقابر قربه ومؤانسته، ثم يا لهم من قوم اتكلوا على الله فى جميع الحالات واستغنوا به عن الخلق فى جميع الأوقات وافتقروا إليه فى جميع الإيرادات، ولم يلتفتوا منه إلى الراحات والشهوات واللذات وعلموا أن لا ملجأ ولا منجى ولا مفر منه إلا إليه، ثم يا لهم من قوم قصدوا إليه لشوقهم إليه لا لعطائه، وقربوا منه لوصلته لا لجزائه، وعبدوه على محبته لا لبره وثوابه، ثم يا لهم من قوم قصدوا الله بقدم الحياء والخشية والحرمة، واتزروا بمئزر داوم الخدمة، وارتدوا بأردية ذكر المنة وأحْرَموا من فعال أهل الغرة، ولبوا بتلبية الشوق والإنابة، وصعدوا على عرفات الفقر والفاقة وطافوا بقدم الصدق حول وصال رب العزة، فهم بأجنحة الشوق منه إليه طائرون وبالكلية منه إليه قاصدون، وبنور المعرفة منه إليه ناظرون، ومن شمامات أنسه يشمون، وبمراوح امتنانه يتروحون، وبكأس الود من شراب الزلفى يشربون، وبقرب القريب وبمناجاة الحبيب يتلذذون، فألم الفراق أنحل أبدانهم ونار الشوق أحرقت أكبادهم، وملاقاة الحبيب غاية مرادهم.

معاشر إخوانى ليس كل أحد يحتمل صفة القاصدين ونعتهم، ولا كل قلب يستحق مواصلة الله تعالى وقربه، ولا كل بشر يؤذن لها بالدخول عليه، فلو أن الناس اطلعوا على قلوب القاصدين عند هيجان الاشتياق، لعاينوا من العجائب ما بهتوا فكيف لو اطلعوا على قلوبهم حين يؤذن لهم بالدخول، وترفع الحجب والأستار عن قلوبهم حتى ينظروا إليه بلا كيف، هذه حالاتهم فى عاجل الدنيا، فكيف غداً حين يقدمون على الله تعالى يوم الزيارة والرؤية، قال الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ القيامة ٢٢-٢٣.

وإن الذين ذكرنا من نعت القاصدين إلى الله تعالى، وصفتهم وأعلامهم فى جنب ما لم نذكر أقل من خردلة بين السماء والأرض، فإن قدرتم إن تدخلوا فى زمرتهم، وموكبهم فبَخٍ بَخٍ، وإلا ففى باب قصة رؤيا أبى يزيد كفاية لكم أن تعرفوا كم شوق القاصدين الى الله تعالى ومراتبهم، فإن نظرتهم فيه ووقفتم عليه إن شاء الله عز وجل.

قلوب القاصدين حشيت سرورا ... فصار أنيسهم ملكاً شكوراً
ووجه القاصدين علاه نور ... ومعدن جميعهم باب الغفور
فيا طوبى لهم فى دار خلد ... إذا نالوا الكرامة والحبورا
فإن القصد فى الدنيا قليل ... وقد كثر العطاء مع الأجورا

الباب التاسع

فى رؤيا أبى يزيد فى القصد إلى الله تعالى
وبيان قصته

واعلموا معاشر القاصدين إلى الله سبحانه وتعالى أن لأبى يزيد حالات ومقامات لا يحتملها قلوب أهل الغفلة وعامة الناس، وله مع الله أسرار لو أطلع عليها أهل المعرفة فيها، وإنى نظرت فى مناقب أبى يزيد، فإذا فيه أشياء من حالاته وأوقاته وكلامه ما كلت به الألسن عن نعته وصفته، فكل من أراد أن يعرف كماله ومنزلته فلينظر إلى نومه ورؤياه التى هى أصح فى المعنى وأقرب إلى التحقيق من غيره.

حكى خادم الشيخ الأجل أبى يزيد البسطامى ﷺ قال: قال لى أبو يزيد البسطامى قدس الله سره: رأيت فى المنام كأنى قاصد إلى الله تعالى طالباً مواصلته سبحانه وتعالى على أن أقيم معه إلى الأبد، فامتحنت بامتحان لا تقوم له السماوات والأرض وما فيهما، لأنه بسط لى بساط العطايا نوعاً بعد نوع، وعرض على ملك كل سماء ففى ذلك كله أغضضت بصرى عنها كلها لما علمت أنها تقطعنى وإنما هى تجربة لى، فكنت لا ألتفت إليها إجلالاً لحرمة ربى، كنت أقول فى كل ذلك كله: يا عزيزى مرادى غير ما تعرض على.

قال خادم الشيخ رحمه الله تعالى: فقلت له: صف لى يا أستاذ مما عرض عليك من مَلَك كل سماء، قال: رأيت فى المنام كأنى عرجت إلى السماء الدنيا فإذا أنا بطير أخضر، نشر جناحاً من أجنحته فحملنى عليها وطار بى حتى انتهى إلى صفوف الملائكة، وهم قيام منحرفة أقدامهم فى التخوم يسبحون الله بكرة وعشياً، فسلمت عليهم فردوا على السلام، فوضعنى الطير بينهم ثم مضى، فلم أزل أُسبح الله تعالى بينهم، وأحمد الله تعالى بلسانهم، وهم يقولون: هذا آدمى لا نورى لجأ إلينا وتحكم معنا، قال: فألهمت كلمات، وقلت: باسم الله القادر على أن يغنينى عنكم، ثم لم يزل يعرض علىَّ المَلَك ما كلت الألسن عن نعته وصفته، فعلمت أنه بها يجربنى، ففى ذلك كنت أقول: مرادى غير ما تعرض على، فلم ألتفت إليه إجلالاً لحرمته.

ثم رأيت كأنى عرجت إلى السماء الثانية فإذا جاءنى فوج من الملائكة، ينظرون إلى كما ينظر أهل المدينة إلى أمير يدخلها، ثم جاءنى رأس الملائكة اسمه لاوين، وقال يا أبا يزيد: إن ربك يقرؤك السلام، ويقول: أبا يزيد أحببتنى فأحببتك، فانتهى بى إلى روضة خضرة فيها نهر يجرى

حوله ملائكة طيارة، يطيرون كل يوم إلى الأرض مائة الف مرة ينظرون إلى أولياء الله، وجوههم كضياء الشمس، وقد عرفونى بمعرفتهم لى فى الأرض، فجاؤنى وحيونى وأنزلونى على شط ذلك النهر، وإذا على حافتيه أشجار من نور، ولها أغصان كثيرة متدلية فى الهواء، وإذا على كل غصن منها وكر طير وإذا في كل وكر ملك من الملائكة ساجد، وكنت كلما وقفت على شيء من ذلك أقول: يا عزيزى مرادى غير ما تعرض على، كن لى يا عزيزى جاراً من جميع المستجيرين وجليساً من المجالسين، ثم هاج من سرى شىء من عطش نار الاشتياق، حتى أن الملائكة مع هذه الأشجار صارت كالبعوضة فى جنب همتى، وكلهم ينظرون إلى متعجبين مدهوشين من عظم ما يرون منى.

ثم لم يزل يعرض على من الملك ما تكل الألسن عن نعته، ففى كل ذلك علمت أنه بها يجربنى، فلم ألتفت إليه إجلالاً لحرمة ربى، وكنت أقول: يا عزيزى مرادى غير ما تعرض على، فلما علم الله منى صدق الإرادة فى القصد إليه، وتجريدى عمن سواه، فإذا أنا بمَلك قد مد يده فجذبنى.

ثم رأيت كأنى عرجت إلى السماء الثالثة، فجاءنى جميع الملائكة الذين هم بها وسلموا على، فإذا ملك منهم له أربعة أوجه: وجه يلى السماء، وهو يبكى لا تسكن دموعه أصلاً، ووجه يلى الأرض ينادى: يا عباد الله اعملوا يوم الفراغ ليوم الأخذ والحساب، ووجه يلى يمينه يكلم الملائكة بلسانه، ووجه يلى يساره يبعث جنوده فى أقطار السموات يسبحون الله تعالى فيها، فسلمت عليه، فرد على السلام ثم قال: من أنت؟ إذ فُضلت علينا، فقلت: عبد قد من الله تعالى عليه من فضله، قال: تريد أن تنظر إلى عجائب الله؟ قلت: بلى. فنشر جناحاً من أجنحته، فإذا على كل ريشة من ريشه قنديل أظلم ضياء الشمس من ضوئها، ثم قال: تعال يا أبا يزيد، واستظل فى ظل جناحى، تسبح الله تعالى وتهلله إلى الموت، فقلت له: الله قادر أن يغنينى عنك، ثم هاج من سرى نور من ضياء معرفتى أظلم ضوء القناديل من ضوئى، فصار المَلَك كالبعوضة فى جنب كمَالى، ثم لم يزل جل جلاله وعزز كبرياؤه يعرض على من الملك ما كلت الألسن عن نعته، ففى كل ذلك علمت أنه بها يجربنى، فلم ألتفت إلى ذلك إجلالاً لحرمته، وكنت أقول فى كل ذلك: يا عزيزى مرادى غير ما تعرض على، فلما علم الله تعالى منى صدق الإرادة فى القصد إليه فإذا أنا بمَلَك مد يده فرفعنى.

ثم رأيت كأنى عرجت إلى السماء الرابعة، فجاءوا بى جميع الملائكة بصفاتهم وهيأتهم ونعوتهم فسلموا على وناظرين إلى كما ينظر أهل البلد إلى أميرهم فى وقت دخوله إليهم، يرفعون أصواتهم بالتسبيح والتهليل، لعظم ما يرون من انقطاعى إليه، وقلة التفاتى إليهم، فاستقبلنى مَلك يقال له

ينائيل، فمد يده وأقعدنى على كرسى له موضع على شط بحر عجاج، لا يرى أوله ولا آوخره، فألهمت تسبيحه وأنطقت بلسانه ولم ألتفت إليه، ثم لم يزل يُعرض على من الملك ما كلت الألسن عن نعته، ففى كل ذلك علمت أنه بها يجربنى، فلم ألتفت إليه إجلالاً لحرمته، وكنت أقول: يا عزيزى مرادى غير ما تعرض على، فلما علم الله تعالى منى صدق الإرادة والانفراد به إلى القصد إليه، فإذا أنا بمَلك مد يده فرفعنى إليه.

ثم رأيت كأنى عرجت إلى السماء الخامسة، فإذا بملائكة قيام فى السماء الخامسة، رؤوسهم فى عنان السماء السادسة، يقطر منهم نور تبرق منه السموات، فسلموا كلهم على بأنواع اللغات، فرددت عليهم السلام بكل لغة سلموا على، فتعجبوا من ذلك، ثم قالوا: يا أبا يزيد تعالى حتى تسبح الله تعالى وتهلله ونعينك على ما تريد، فلم ألتفت إليهم إجلالاً لربى جل جلاله وعزته، فعند ذلك هاج من سرى عيون من الشوق، فصار نورى لعظمته فى نور الملائكة كالشمس فيما يوضع فيها سراج وعرض على من الملائكة خلق عظيم، وأنا لم التفت إلى شيء منها مما رأيت، وذلك لعلمى إنما هو يجربنى، وكنت أقول: يا عزيزى مرادى غير ما تعرض على، فلما علم الله تعالى منى صدق الإرادة فى القصد إليه فإذا أنا بمَلك مد يده فرفعنى إليه.

ثم رأيت كأنى عرجت إلى السماء السادسة فإذا أنا بالملائكة المشتاقين جاءونى يسلمون على ويفتخرون بشوقهم على، فافتخرت عليهم بشئ من طيران سرى ثم لم يزل يعرض على من الملك ما كلت الألسن عن نعته، ففى كل ذلك علمت أنه بها يجربنى، فلم ألتفت إليه، وكنت أقول: يا عزيزى مرادى فى غير ما تعرض على، فلما علم الله تعالى منى صدق الإرادة فى القصد إليه، فإذا أنا بملك مد يده فرفعنى.

ثم رأيت كأنى عرجت إلى السماء السابعة، فإذا أنا بمائة الف صف من الملائكة استقبلنى، كل صف مثل الثقلين الف الف مرة، مع كل ملك لواء من نور، تحت كل لواء الف الف ملك، طول كل ملك مسيرة خمسمائة عام، وكان على مقدمتهم ملك اسمه بيرائيل، فسلموا على بلسانهم ولغتهم، فرددت عليهم السلام بلسانهم فتعجبوا من ذلك، فإذا بمنادى ينادى: يا أبا يزيد قف قف فإنك قد وصلت إلى المنتهى، فلم ألتفت إلى قوله، ثم لم يزل يعرض على من الملك ما كلت الألسن عن نعته، وفى كل ذلك لم ألتفت له ولم أقف معه، لعلمى أن الجليل جل جلاله يجربنى بها، وكنت أقول: يا عزيزى مرادى في غير ما تعرض على.

فلما علم الله منى صدق الإرادة فى القصد إليه صيرنى طيراً، كل ريشة من جناحى أبعد ما بين المشرق والمغرب الف الف مرة، فلم أزل أطير فى الملكوت، وأجول فى الجبروت وأقطع مملكة بعد مملكة وحجاباً بعد حجاب، وميداناً بعد ميدان وبحاراً بعد بحار، وأستاراً بعد أستار، حتى أتيت ملك الكرسى فاستقبلنى، ومعه عمود من نور، فسلم على ثم قال: خذ العمود، فأخذته فإذا السماوات بكل ما فيها قد استظل بظل معرفتى، واستضأت كلها بضياء شوقى، والملائكة كلهم صارت كالبعوضة عند كمال همتى فى القصد إليه، ففى كل ذلك كنت خائفاً من أن ألتفت إلى شيء من ذلك وأقف معه فيوقفنى، وانقطع معه لعلمى أنه يجربنى بذلك كله، فلم ألتفت إليه إجلالاً لحرمة ربى جل جلاله.

ثم لم أزل أطير وأجول من مملكة إلى مملكة، ومن حجاب إلى حجاب ومن ستر إلى ستر، حتى انتهيت إلى الكرسى فإذا استقبلني ملائكة لهم عيون بعدد نجوم السماء، يبرق من كل عين نور يلمع منه، فتصير تلك الأنوار قناديل، أسمع من جوف كل قنديل تسبيحاً وتهليلاً، ثم لم أزل أطير كذلك حتى انتهيت إلى بحر من النور تتلاطم أمواجه، يظلم فى جنبه ضياء الشمس، فإذا على البحر سفائن من نوره يظلم فى جنب نورها أنوار تلك الأبحر، فلم أزل أعبر من بحر إلى بحر، حتى انتهيت إلى البحر الأعظم الذى عليه عرش الرحمن، فلم أزل أسبح فيه حتى رأيت ما تحت العرش إلى الثرى من الملائكة الكروبيين والروحانيين وحملة العرش وغيرهم ممن خلق الله سبحانه وتعالى فى السماوات وفى الأرض أصغر من حيث طيران سرى في القصد إليه من خردلة بين السماء والأرض.

ثم لم يزل الجليل جل جلاله يعرض على من لطائف سره وكمال قدرته وعظيم مملكته ما كلت الألسن عن نعته وصفته، ففى كل ذلك كنت أقول: يا عزيزى مرادى فى غير ما تعرض على، فلم ألتفت إليها إجلالاً لحرمته. فلما علم سبحانه وتعالى منى صدق الإرادة فى القصد إليه نادانى سبحانه وتعالى: إلىَّ إلىَّ، وقال: يا صفى أدن منى، وأشرف على مشرفات بهائى وميادين ضيائى، واجلس على بساط قدسى حتى ترى لطائف صنعى فى آنائى، أنت صفى وحبيبى وخيرتى من خلقى، فكنت أذوب عند ذلك كما يذوب الرصاص، ثم سقانى شربة من عين اللطف بكأس الأنس، ثم صيرنى إلى حال لم أقدر على وصفه ثم قربنى منه، وقربنى حتى صرت أقرب من الروح إلى الجسد، ثم استقبلنى روح كل نبى، وسلموا على وعظمونى أمرى وكلمونى وكلمتهم، ثم استقبلنى روح محمد صلى الله عليه وآله وسلم ثم سلم وقال: يا أبا يزيد مرحباً وأهلاً وسهلاً، فقد فضلك الله على كثير

من خلقه تفضيلاً، إذا رجعت إلى الأرض فأقرأ أمتى منى السلام، وانصحهم ما استطعت وادع لهم وادعهم إلى الله عز وجل، ثم لم أزل مثل ذلك حتى صرت كما كان من حيث لم يكن التكوين، وبقى الحق بلا كون ولا بين ولا أين، ولا حيث ولا كيف، جل جلاله وتقدست أسماؤه.

معاشر إخوانى عرضت هذه الرؤية على أجلاء أهل المعرفة بالله فكلهم يصدقونها ولا ينكرونها، بل يستقبلونها عند مراتب أهل الإفراد بالقصد إليه سبحانه وتعالى، ثم يحتجون بقول النبى ﷺ: (إن العبد لا يزال من الله والله منه ما لم يجزع، فإذا جزع وجب عليه العقاب والحساب).

وروى عن النبى ﷺ أنه قال: (إن من العلم كهيئة المكنون لا يعرفه إلا أهل المعرفة بالله تعالى، ولا ينكره إلا أهل الغرة بالله تعالى)، ولولا كراهية التطويل لذكرنا احتجاجهم على صحتها من الأخبار الصحيحة والحكايات المشهورة المعروفة، ولكن معرفتى أن كل من جهل مراتب الأصفياء وأهل المعرفة فلا يعرف قدرهم وشرفهم ولا تغنى عنهم كثرة الدلائل والبيان، ولا تنفعه كثرة الحجج والبراهين، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يونس ١٠١، وقال سبحانه وتعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ الأعراف ١٤٦، وقال سبحانه وتعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ العنكبوت ٤٩، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ النور ٤٠.

الباب العاشر

فى حكايات القاصدين إلى الله تعالى وقصصهم

اعلموا معاشر القاصدين إلى الله تعالى أن لله سبحانه وتعالى عباداً قصدوا إليه بالكلية، وأودعهم الله سبحانه وتعالى ودائع سره، وعملوا له على محبته، فكان لهم المولى ولياً موالياً، ودامت لهم المؤانسة وأعطاهم السكينة مع الله عز وجل، وتجردوا عما دونه فرفع الحُجُب عنهم، فلذلك لا تزن الدارين بكل ما فيهما فى جنب معرفتهم ووجدانهم لذائذ أنسهم وزن خردلة، انظر ما حكى عن إبراهيم نبى الله عليه السلام حين خرج من الكوفة قاصداً إلى الله تعالى، فقيل له: إلى أين تذهب؟ فقال: إنى ذاهب إلى ربى. فقالوا له: وكيف تذهب إلى ربك، وأنت لا تعرف الطريق؟ فقال: سيهدينى ربى. فقالوا: حرقوه وانصروا آلهتكم، فقال إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه: وحر نارى أشد من حر ناركم، حسبى الله ونعم الوكيل، نعم المولى ونعم النصير.

وحكى عن إبراهيم بن أدهم رضى الله عنه: كان يقول فى مناجاته: إلهى إنك تعلم أن الجنة وما دونها لا تزن عندى جناح بعوضة، بعد ما وهبت لى معرفتك، وآنستنى بك، وفرغتنى بالتفكر لعظمتك وجعلتنى فى جوارك بالنظر إلى وجهك الكريم.

وحكى أن ذا النون المصرى قال: لو أن الله سبحانه وتعالى أبدى من طيران سر العارف ذرة عند قصده إليه، لاحترق من العرش إلى الثرى، لأنه ليس شىء فى الدارين أعلى ولا أعظم من طيران سر العارف نحو معروفه ومقصوده.

وحكى فى بعض الأخبار أن الله سبحانه وتعالى أوحى إلى إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه حين اتخذه خليلاً: (أن يا إبراهيم إنك لى خليل وأنا لك خليل، فانظر أن لا يشتغل قلبك بغيرى فتقطع خلتك منى وخلتى منك، لأن القاصد المصدق بخلتى لو احترق بالنار لم يتحول قلبه عنى إلى غيرى إجلالاً لحرمتى)، وذكر الله سبحانه وتعالى لنا وصف ذلك فى كتابه العزيز بقوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ البقرة ١٣١، ثم ابتلاه باستقبال جبريل له فى الهواء، حين رموه فى المجنيق، وقال له: يا خليل الله، الجليل يُقرئك السلام، فقال هو السلام ومنه السلام، وإليه يعود السلام، ثم قال له جبريل: يا خليل الله هل لك من حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، وأما إليه فحسبى من سؤالى علمه بحالى، يا جبريل ما لك أن تدخل بينى وبين خليلى تنح عنى، فإن حر

نارى أشد من حر نار النمرود عليه اللعنة، حسبى الله ونعم الموكيل، نعم المولى ونعم النصير. فلما علم الله سبحانه وتعالى صدق التسليم قال: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ الأنبياء ٦٩.

اعلم أن الله سبحانه وتعالى يورى معاملته مع خليله عليه السلام فى النار لجميع العباد ليعلموا أن الله سبحانه وتعالى يعامل كل من أحبه ألا يضره شىء فى الدارين، وليعلموا أن أهل المعرفة فى النار أطيب عيشاً وأحسن حالاً وأشد سروراً مع الله سبحانه وتعالى من أهل الجنة فى الجنة، وليعلموا أن كل من أوقد نار محبته، فلا تحرقه نار فى الدارين، لأن نار الشوق والمحبة أحرقت ما دونه، وصارت النار برداً وسلاماً فى جنبها.

وحكى أن عبد الله بن محمد بن عبد الله رضي الله عنه كان يقول فى بعض مناجاته: إلهى لا تدخلنى النار فإنك إن أدخلتنى النار صارت برداً من حبى لك.

وحكى أن ذا النون المصرى رضي الله عنه قال: أدنى منزلة العارف هو أن الله سبحانه وتعالى لو أدخله النار وأحاط به عذابه لا ينصرف قلبه عنه، ولا يزداد فى قلبه إلا أنساً وحباً له وشوقاً إليه وسروراً به، ولو أدخله الجنة وأحاطت به لذائذها وراحاتها، لا يشتغل قلبه بها ولا يلتفت عنه إليها إجلالاً لله تعالى وعظمته، ولا يشغله ما فى الدارين عنه.

وحكى أن أبا سعيد الخراز قال: رأيت رجلاً على شاطئ البحر جالساً ورأيت عليه سيماء العارفين، فسلمت عليه وقلت: كيف الطريق إليه؟ قال: أما الطريق العام فهو الذى أنت عليه، وأما الطريق الخاص هو أن تغيب عن كل ما سواه كما رأيتك الآن، ثم قام ومشى على الماء وغاب عنى ولم أراه بعد ذلك. قال: فبكى أبو سعيد ثم أنشأ يقول:

لو كنت من أهل الوداد حقيقة ... لغبت عن الدنيا ونمت عن الكل الحسن
وكنت بلا حال مع الله واقفاً ... تصان عن التذكر للجن والأنس

وحكى أن ذو النون رأى رجلاً يبكى فى سجوده وهو يقول: اللّٰهُمَّ ارزقنى رزقاً حلالاً واسعاً وزوجنى من حور العين فى الجنة. فقال له ذو النون: يا مسكين فى الدارين، تبكى فى الدنيا للخبز وفى الآخرة تبكى على الحور العين! فمتى تتفرغ لمولاك!

وروى فى بعض الأخبار أن الله سبحانه وتعالى أوحى إلى نبى من الأنبياء أن قُل لقومك: (إن أعطيتكم الدنيا اشتغلتم بإمساكها، وإن منعتها عنكم اشتغلتم بطلبها، فإلى متى هذا؟ متى تتفرغون لى؟).

قيل: سمع بعض العارفين قائلاً يقول: إلهى فى الدنيا الغموم والهموم، وفى الآخرة الحساب والعذاب، فمتى الراحة؟ فقال له العارف: يا هذا ما بلغك قول النبى ﷺ: (لا راحة للمؤمن دون لقاء ربه).

وحكى أن الخواص قال: مررت بشاب فى البادية جالس تحت الشجرة أم غيلان وهو يقول: لبيك من الدارين إليك، لبيك عمن سواك لبيك. فسلمت عليه فرد السلام، ثم رد السلام، ثم رمى ببصره نحو السماء، فقال: سبحان من آنس ما دونه عن قلوب أصفيائه وأحبابه، فنظروا بقولهم إليه بلا كيف! والله للمحبين ما أملوا. فقلت: رحمك الله كيف الطريق إليه؟ فقال: بترك الخلائق وقطع العلائق. قال: معى شىء من الدنانير فوضعتها بين يديه وقلت له: أنفقها على أمرك، قال: بارك الله فيك إن الذى قصدنا إليه أجود منك، ثم قام ومضى مسرعاً وقال: إلهى أكثر خلقك مشغولون عنك وأنت عوض من كل فائت، ثم غاب عن بصرى فلم أره بعد ذلك.

وروى فى بعض الأخبار أن الله سبحانه وتعالى قال لموسى عليه السلام: يا موسى إذا رأيت لى طالباً فكن له خادماً فإنك تصل بذلك إلى قربى ومصاحبتى. فقال له موسى عليه السلام: إلهى دلنى على واحد منهم. فقال: اذهب إلى خرابة كذا فإن فيها مُبتلى. فأتى موسى الخرابة، فإذا برجل مقعد أعمى أصم وهو يقول: الحمد لله رب العالمين كما هو أهله. فقال موسى: منذ متى وأنت ها هنا؟ قال: منذ كذا وكذا سنة، كنت مواظب مؤانسته ومواصلته فامتحننى بامتحان لا تقوم له الجبال ولا السماوات والأرض بكل ما فيها! فقال له موسى عليه السلام: فهل تشتهى شيئاً؟ قال شربة ماء، فذهب موسى عليه السلام فأتى إليه بشربة ماء فوجده ميتاً فحزن موسى عليه السلام عليه حزناً شديداً وتركه ومضى ليأتيه بكفن، فلما رجع فإذا أسد يأكله فطرح موسى الكفن، وقال: يا رب زعمت أنه من أوليائك وأهل قربك فلما فعلت به ذلك؟ قال: يا موسى هكذا فعلى بكل من أرادنى وانقطع إلى ثم مال قلبه إلى غيرى، وإنى غيور على أحبابى، صرفت عنه ما سواى بالكلية.

وحكى أن شاباً من أهل المعرفة قصد زيارة بيت الله الحرام ومعه رفيق، فلما وقع نظره إلى البيت استأنس به، وجعل ينظر إليه ثم جعل يضرب وجهه بيده، حتى خرجت عيناه وسقطتا على الأرض ومات مكانه، فبكى عليه رفيقه وحزن حزناً شديداً، ثم رفع رأسه إلى السماء وقال: إلهى لم صنعت هذا بصاحبى ورفيقى؟ فإذا بهاتف يقول: هكذا فعلنا بمن أقبل إلينا ثم نظر منا إلى غيرنا.

وكان سرى السقطى كثيراً ما يقول: اللّٰهُمَّ إنى أعوذ بك من ذل الحجاب وسوء المنصرف عنك بعد القصد إليك، فإنك خير جليس وأنيس.

وحكى أن رجلاً أتى إلى باب زبيدة، فقال: إنى عشقتها، فأخبروها بقصته. فقالت: ائتونى به، فأتى به إليها. فقالت له: أصادق أنت فيما تزعم؟ فقال: إنى عشقتك. فقالت: يا هذا لا تقل هكذا فإن لى ولك فيها ملامة، أعطيك الف درهم ولا تقل. قال: لا أريد، فقالت: أعطيك الفين، فقال: لا أريد مثل ذلك، حتى بلغا إلى عشرة آلاف درهم، فقبل الرجل تلك الدراهم ورضى بها عنها، وترك مقالته بعشقها، فأمرت زبيدة بضرب قفاه، فما زالوا يضربوه على القفا حتى قتلوه. فقالت: هذا جزاء من ادعى عشقنا ومحبتنا، ولم يكتف بنا عما لنا. فما من عارف سمع بهذا القصة فى ذلك الوقت إلا فزع حتى غشى على بعضهم، وقالوا: مخلوق ادعى محبة مخلوق، فلما مال منه إلى غيره حل به ما حل، فكيف بمن ادعى محبة رب العزة جل جلاله.

وحكى أن أبا سعيد قال: سألت رجلاً من أهل المعرفة متى يصل القاصد إلى الله تعالى؟ قال: لقد سألت عن أمر عظيم، فإنما قبل ذلك عقبة وبحار وأودية وقفار، فمتى لم تقطعها لم تصل إليه، وهى عقبة الدنيا وبحر النفس وأودية الخلق وقفار رؤية العطايا والكرامات، لأن فى قطعها الوصول إلى الرب سبحانه وتعالى.

وحكى أن بعض العارفين حج، فلما فرغ من شأن الحج أحرم من الناس ولبى مرة أخرى، فقيل له: يا هذا مضت أيام الحج، فما هذا؟ قال: أحرمت أولاً من الوطن إلى البيت، الآن أحرمت من البيت إلى صاحب البيت.

وحكى أن بهلول المجنون دخل يوماً بيت الله الحرام ساكناً مبهوتاً مدهوشاً، فقال له رجل: سل منى حاجاتك؟ فإنك فى بيت الله تعالى. فقال: ليس من مروءة الرجل أن يسأل فى بيت الله غير الله، ثم أنشأ يقول:

كلما ترى صيرنى أوحشنى أفردنى
شردنى فى قفرها أقلقنى فى وطنى
إذا تغيب بدا وإن بدا غيبنى

معاشر القاصدين إلى الله تعالى وإلى مواصلته، اعرفوا مراتب القاصدين وسيرهم، واسلكوا سبيلهم ولا تستوحشوا من قلة أهلها، واجتهدوا إخوانى فى السير فإن المدة قليلة، وقد آن ذهاب أوانها، فإن المصير إلى الله قد دنا والمنقلب قد قرب، والرحيل من هذه الدار كثيرة الأكدار إلى مقعد صدق عند مليك مقتدر.

يا معاشر القاصدين يا إخوانى وفقكم الله تعالى، ينبغى لكل حر قصد الله سبحانه وتعالى، أن ينتقل إليه بالكلية ويستسلم له وينقطع إليه ويفوض أمره إلى الله بالكلية، وأن ينفرد ويرتحل عن الكل إلى الكل، ويفرغ قلبه عن شغل لا يفيده بالكلية، إلى شغل لا غنى له عنه، بل إلى من لا غنى له عنه أصلاً، إخوانى جاء الموت وذهبت الدنيا بالكلية، وفات المقصود والمطلوب بالكلية، فالسعيد من داوم بالقصد إلى الله تعالى وخرج من الدنيا طائعاً قبل أن يخرج منها كارهاً.

فهذا بيان القصد إلى الله تعالى ومواصلته، وما ينبغى للقاصدين من التهيؤ حتى يكونوا للمقصود أهلاً، فإذا حالت وفاتت من هذه حالة أو علم الله منه صدق طلبه وقاطعه أوان أجله أمر الله ملائكته بالتحية والصلاة عليه وباهى به الملائكة الكرام، لأنه مركب من شهوة ونفس وعليه أعداء يمكرون به ويسولون له دنيا حاضرة وبلايا متواصلة، فيا لها من همة علية ونفس زكية، يجعلها الله عنده فى حضرته مقبولاً وتحت حجاب القرب منه مدفوناً، ثم صيره بالكلية فانياً رميماً عن كل ما سواه، ثم صيره حياً باقياً لبقائه فى الأبد مع الأبد إلى الأبد جل جلاله، ثم بعد ذلك تأتيه حالات ومقامات كرهت شرحها غيرة عليها حتى أجد أهلها.

وفيما قد ذكرنا إشارات وعبارات لا تصلح للعوام الذين طبعوا على طباع الأنعام، ولا يعرفون من نعم المنعم غير الطعام والمنام وحسن المعاشرة مع الأنام، بل هذا يصلح لمن له سراج الديمومية ونور الأزلية: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ النور٤٠، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ الحج ٤٦.

افهموا معاشر القاصدين إلى الله تعالى ما ذكرنا لكم من بيان التهيؤ للقصد، وما ينبغى لكم فيه إن أردتم أن تكونوا للوصل أهلاً، وبالله التوفيق على ما يحب ربنا ويرضى، فإنه الموفق لما يشاء، فإن وفقتم معاشر إخوانى على ما ذكرنا فى هذه الرسالة المباركة فبَخٍ بَخٍ، وإلا ففى كتاب "معالى الهمم" لكم كفاية إن عرفتم ما ذكرنا منه من لطائف الإشارات وجوهر مكنون العبارات، فإن وفقتم لولاية الله تعالى ونظرتم فيه بعين التحقيق، وفقتم له إن شاء الله تعالى.

قلوب العارفين لها عيون ترى ما لا يراه الناظرينا
وأجنحة تطير بغير ريش فتأوى عند رب العالمينا
وألسنة بسر قد تناجى بغيب عن كرام كاتبينا
فترعى فى رياض القدس طوراً وتشرب من بحار العارفينا
عباد فضلوا بالسر حتى دنو منه وصاروا قاصدينا

تم كتاب القصد إلى الله

للإمام والعارف بالله

أبو القاسم الجنيد

قدس الله سره ونور ضريحه



الفهرس

خطبة الكتاب ٥

الباب الأول

فى القصد إلى الله تعالى وما يستقبله من العقبات ٦

الباب الثانى

فى ترك الوقوف مع المنازل والمقامات عند القصد إليه ٩

الباب الثالث

فى بيان نداء الحق سبحانه وتعالى إلى القاصدين إليه واستماعهم له ١٢

الباب الرابع

فى إجابة القاصدين نداء الحق بعد استماعهم له ١٥

الباب الخامس

فيما ينبغى للقاصدين من التهيؤ حتى يكونوا للمقصود أهلاً ١٩

الباب السادس

فيما ينبغى للقاصدين من رعاية النفس والروح والقلب ٢١

الباب السابع

فى مشاورة النفس والروح والقلب فى أمور القصد إلى الله ٢٤

الباب الثامن
فى نعت القاصدين إلى الله تعالى وصفتهم وأعلامهم ٢٨

الباب التاسع
فى رؤيا أبو اليزيد فى القصد إلى الله تعالى وبيان قصته ٣٠

الباب العاشر
فى حكايات القاصدين إلى الله تعالى ٣٥

الفهرس ٤١


almashahed
www.almashahed.com